تاريخ الخطابة
وتطورها عبر العصور

تأليف
دكتور/ سعيد محمد الصاوى
أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية
بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا

الطبعة الثانية

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

المقـدمة

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على أفصح خلق الله أجمعين. الذى أنزل عليه القرآن الكريم: بلسان عربى مبين- سيدنا محمد. وعلى آله. وصحبه. ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بـــــعد

فهذا كتاب فى التأريخ للخطابة وتطورها عبر العصور التى اشتهرت بازدهار الخطابة. ووفرة الخطباء. أعددته لطلاب الدعوة فى جامعة الأزهر الشريف. والذين يُعَدُّون إعداداً منهجياً علمياً لمخاطبة جماهير المسلمين. مبلغين دين الله تعالى- عقيدة وشريعةً وأخلاقاً وسلوكاً- ليسير الناس على نهجه فيسعدوا فى دينهم. ودنياهم. وأخراهم.

وركزتُ فى هذا الكتاب على الجانب التاريخى. مع ذكر نماذج تطبيقيةً من الخطابة والخطباء عبر العصور، لتكون زاداً ومدداً ينهل منه الخطباء المعاصرون. وتاريخ الخطابة. هو: العلم الباحث عن أحوال الخطابة فى عصورها المختلفه من حيث رفعتُها وازدهارُها. وما يحدثه الخطباء من أثر فَعَّال فى

أمهم إيجاباً أوسلباً. ومن أهم فوائد دراستنا لتاريخ الخطابة:
= معرفة أسباب ارتقائها. لنتزود بها فى ارتفاء خطابتنا المعاصرة.

= معرفة أساليب الخطابة وفنونها. وأفكار الخطباء وتنوع أذواقهم على اختلاف عصورهم. حتى يميز الخطيب المعاصر بينها.ويتخير أحسنها وأنسبها لذوقه.

= معرفة مشاهير الخطباء فى كل عصر ومصر. وما كان لخطبهم وشهرتهم من أثر محمود. أو حال ممقوتة. فيحتذى بالمحمود. ويتجنب الممقوت. ومن أهم العصور التى ركزتُ الحديثَ عنها فى هذا الكتاب : العصر اليونانى. والرومانى. فالعصر الجاهلى. وصدر الإسلام. لما لهذه العصور من شهرة وازدهار فى هذا المجال.

والله تعالى أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم. وأن ينفع به الإسلام والمسلمين. إنه على ما يشاء قدير. وهو حسبنا ونعم الوكيل. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

دكتور

سعيد محمد الصاوى

تاريخ الخطابة

إن البحث فى الخطابة من حيث نشأتها والتاريخ لها يقتضينا أن نلقى نظرةً إجماليةً فى نشأتها ونموها . والعوامل التى أدت إلى هذا النمو . حتى نعرف الأثر الذى تركه وحى الله تعالى إلى أنبيائه ورسله فى هذه الوسيلة الهامة من وسائل الدعوة إليه سبحانه وتعالى. وحتى ندحض ما ادعاه بعض المستشرقين وأتباعهم الذين يرون أن الخطابة – خاصة العربية والإسلامية - انتقلت من مرحلة السذاجة والضعف إلى مرحلة اليقظة والرقى بفعل الآداب الأخرى – خاصة الأدب اليونانى القديم- فيها.

ولو اقتصر هذا القول على المستشرقين وأتباعهم – لهان الخَطْبُ. ولكن من المؤسف له حقاً . أن يقول بهذا الرأى بعض الباحثين من أبناء العروبة والإسلام مجاراة للمستشرقين وأتباعهم.[1]

١- على سبيل المثال ممن قالوا بهذا – مع حسن ظننا بهم وبعلمهم - : (وبهذا ظهرت الخطابة . ولكنها كانت فى أول أمرها ككل شيء مستحدث بدائية بحيث لم تخرج عن الكلام المألوف لدى الجميع . ثم تطورت حتى أصبحت أمراً خاصاً بذوى المواهب والثقافات . بل صارت أصعب من ذلك وأعمق)

- الخطابة نشأتها وميادينها- د/محمود محمد رسلان ص ٥ ط مكتبة المطيعى للطبع والنشر والتوزيع بالعباسية بالقاهرة ١٩٩٠م .

وبإمعان النظر فى تاريخ الأمم والشعوب نجد أن الخطابة فطرية فى الإنسان . نشأت من قديم مع الإنسان الأول .

وذلك لأن الإنسان مدنى بفطرته يحتاج إلى بنى جنسه. وَمِنْ ثَمَّ احتاج إلى استخدام اللغة : لأنها الوسيلة التى يتفاهم بها الأفراد فيما بينهم . ويعبرون بها عن أغراضهم . ويصورون بها انفعالهم وما تجيش به صدورهم من آمال وآلام.

ولأنها شىء يقتضيه التجمع البشرى للسير فى هذه الحياة . فلما أراد الله تعالى إعمار الكون خلق آدم عليه السلام . ثم خلق له حواء من جنسه حتى يكون النسل وتمتد الحياة.

وكان لابد لبنى آدم من التعامل مع بعضهم بحكم اجتماعهم فكان الكلام هو لغة التخاطب لتبادل المنافع . وتحقيق البقاء فى جماعة . وصدق الله حيث قال – الرحمن ، عَلَّمَ القرآن . خلق الإنسان . عَلَّمه البيان ....[٢]

فقد صاحبت هداية الله تعالى الإنسان من أول يوم خلق فيه . وجاء بها الأنبياء والمرسلون – رسلاً مبشرين ومنذرين

---

٢ - سورة الرحمن آية ١-٤ .

لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .[٣] فكانوا هداة لأممهم . خطباء لأقوامهم . يهدونهم للتى هى أقوم ويبشرونهم بالفوز العظيم والنعيم المقيم .ويحذرونهم من غواية الشيطان الرجيم . والعذاب الأليم . ولهذا بعثوا بالحجة والحكمة . وصدق الله حيث قال :- " *وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم* "[٤] لأن مدار الأمر فى كل شئون البشر قائم على البيان والتبيين وعلى الإفهام والتفهيم ، وكلما كان اللسان أبين كان أفضل وأجمل.

ولذلك سأل موسى عليه السلام ربه حين بعثه إلى فرعون . قائلاً : " رب اشرح لى صدرى . ويسر لى أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى:[٥] وكان مقابلوا الرسل ومعاندوهم خطباء فصحاء . استطاعوا بسحر بيانهم أن يستميلوا شعوبهم ويسيطروا على أفكارهم ، ومن ذلك : خطبة فرعون فى شعبه يسفه فيها موسى ويمجد نفسه — ونادى فرعون فى قومه . قال :- " *يا قوم أليس لى ملك مصر .. وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون.أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين. فلولا ألقى عليه*

٣ - سورة النساء أية ١٦٥.
٤ - سورة ابراهيم أية ٤.
٥ - سورة طه أية ٢٥-٢٨ (ويراجع البيان والتبيين للجاحظ جـ١ ص ١١.)

أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين "[٦]

وهذا يدل على أن فرعون كان خطيباً بارعاً فى اللعب بعقول وأفكار قومه يستخفهم بالكلمة الساحرة والحجة الملتوية .

إذاً فالخطابة موجودة مع وجود الإنسان الأول . منذ اجتمع الناس فى مكان واحد استوطنوه وتفاهموا بلسان واحد . عرفوا الخطابة لأنه من البديهى أن يختلفوا فى رأى أو عقيدة . ومن البديهى أن يتنافسوا على غنيمة أو متاع أو سلطة فيحاول المتفوق أن يستميل إليه من يخالفون . وأن يقنعهم فإذا ما أقنعهم واستمالهم فهو خطيب وقوله خطبة.

ثم إنه من البديهى أيضا أن تنشب أمور تستدعى تعاون المجتمع . وتضافر قواه على اجتلاب نفع عام مشترك أو اتقاء ضير. فيتصدر بعض النابهين من هذا المجتمع لقيادة الجماعة وزعامتها . عُدَّتُهُم فى ذلك خطابتهم على أن الناس فى حياتهم القديمة تسلحوا بأسلحة مادية للدفاع والهجوم . وتسلحوا أيضا بسلاح معنوى هو اللسان . وما زالت الخطابة إلى الآن

---

٦ - سورة الزخرف آية ٥١ . ٥٤ .

سلاحاً مرهفاً تتصاول به الأمم . وإن جيشت جيوشها وافتنت فى اختراع القذائف والمدمرات . لذلك لم يخل من الخطابة سجل أمة وعى التاريخ ماضيها .

فقد حفظها خط آشور المسمارى. وقيدها خط الفراعنة الهيروغليفى . ثم رواها تاريخ اليونان السياسى والأدبى منذ القرن السابع قبل الميلاد . وبها أخضع بوذا الجموع الهندية لتعاليمه.وبها أذاع الدينَ أنبياءُ بنى إسرائيل . وكان لها مكانها العظيم فى مجامع العرب قبل الإسلام.وفى أسواقهم الأدبية بنوع خاص [٧]. كما كان للإسلام أثره الواضح فى نهضة الخطابة . فقد جدد شبابها وأعلى منارها . حين جعلها من أهم شعائره [٨] وحين جعلها وسيلة من أهم وسائل نشر الدعوة فى كل زمان ومكان وشأن.

وهكذا نجد أن الخطابة وُجِدَتْ منذ وُجِدَ الإنسان.لا يخلو منها أى مجتمع من المجتمعات التى سجل التاريخ آثارها فى القديم والحديث . إلى وقتنا الحاضر وإلى ماشاء الله رب العالمين.

٧. فن الخطابة :د/ محمد أحمد الحوفى ص ٤٢ .

٨. كخطبة الجمعة والعيدين والخسوف والكسوف والاستسقاء.........الخ

وسنعرض بعض الأمم التى سجل التاريخ مآثرها فى هذا المجال لتكون منارات على طريق طلاب العلم خاصة الذين يؤهلون لمواجهة جماهير المسلمين هداة مصلحين.

وفى مقدمة هذه الأمم التى سنعرض لها إن شاء الله تعالى فى هذا المجال : أمم الحضارات المشهورة فى تاريخ البشرية . مثل :- قدماء المصريين. واليونان. والرومان ، والفرس. و الهنود. والعرب فى الجاهلية والإسلام. وما تلى ذلك.

الفصـل الأول

الخطابة عند المصريين القدماء

فـى مصـر القديمـة ظهـرت الخطابـة بشـكل تلقـائى بـين الجمـاهير . وكانـت خطـبهم توجـه إلـى الآلهـة.[٩] والكهنـة والأمراء وكان حكماء الدولة وكهانها يوجهون نصائحهم إلى الشعب على شكل مواعظ. وقد حفظت لنا نصوص الأهرام أنشودة للشمس تخاطب مصر فى تعداد طويل ورائع للمنافع التـى تستمتع بها تحت حماية وسيادة إلـه الشمس. -رع - وأيضاً كـان الكهـان يوجهون خطـبهم إلـى الملك شارحين لـه أوضـاع الشـعب الإجتماعيـة والاقتصـادية . وكـان الملك أيضـاً يوجه خطبة تقليدية إلى الوزراء حين تقليدهم مناصبهم.

لقد كان أفراد الشعب فـى أحيـان قليلـة يوجهـون خطـبهم إلـى الملـك نفسـه يشـكون لـه أحوالهم ويستعطفونه فـى حـل مشاكلهم.

---

٩ - اى من يسمون الهة. او يعتقد فيهم الالوهية مثل: رع -إله الشمس

وقصة الفلاح الفصيح توضح لنا منزلة الخطابة فى شعب مصر القديم . فقد أطال الرجل وأفصح عن مظلمته وطالب بالعدل فى شكل جميل ومثير. لدرجة أن الملك استجاب له بعد تأثره [١٠].

وتتمثل هذه القصة فى أن أحد الفلاحين البسطاء فى الدولة المصرية القديمة . قد سلب منه بعض متاعه فَقَدَّمَ شكوى إلى الملك تفيض بالفصاحة والبلاغة قال فيها :" أيها الملك : إنك الرئيس ، وبيدك الميزان.وإن لسانك هو اللسان الصغير للميزان ، وقلبك هو تلك الصنجة.وشفتاك هما قلب الميزان . فإذا سترت وجهك عن المظالم ، فمن ذا الذى يمكنه أن يرد العار. أنت تصنع العدل. وتصنع كل طيب وتبيد كل خبيث، أنت تجيء كالشبع ، وبمجيئك ينتهى الجوع،أنت تجيء كالثياب. وبمجيئك ينتهى العرى . أنت كالسماء الهادئة بعد عاصفة هوجاء تعطى الدفء لمن أصابه البرد، أنت كالماء تروى الظمأ ." [١١]

١٠ . قواعد الخطابة د/ احمد غلوش صـ٢١ ط القاهرة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م

١١ . تطور الفكر الدينى فى مصر القديمة ص ١٧٩ ــ ٣٨٠ ــ ٣٤١ . ويراجع الحكم والامثال والنصائح عند المصريين القدماء ... محرم كمال ص ٤٠ . ط المكتبة الثقافية رقم ٧١ .

ويظهر لنا من تتبعنا لنصوص الأهرام . والنصوص البردية،أن الخطابة المصرية كانت فطرية. وأنها كانت تراعى الأسلوب النفسى المؤثر.

وفى طياتها نجد روعة البلاغة . ودقة المعنى . وكانت تختلط دائماً بأفكار المصريين عن الآلهه والدار الآخرة.

ويبدو أن الملك و الأمراء والكهنة كانوا يتعلمون فن الإلقاء الخطابى، بينما باشره الشعب بصورة فطرية[١٢] كما هو الحال فى خطبة الفلاح الفصيح السابقة. وكما هو الحال فى خطبة الحكيم – *بتاح حتب* – أمام الملك – سيسى – أحد ملوك الأسرة الخامسة . والتى يقول فيها الملك :" لقد أقبلت الشيخوخة ، وبدا خرفها ، وسرت الآلام فى الأعضاء وتبدى الهِرَمٌ وكأنه شىء جديد . وذهبت القوة . وحل محلها الضعف والهزال. وصمت الفم ، وتوقف عن الكلام . وغارت العينان . وأصبحت الآذان صماء . وأمسى القلب كثير النسيان لا يذكر ما حدث بالأمس ، وغدت العظام تقاسى من تقدم السن . وتوقف الأنف فأصبح ساكناً لا يتنفس[١٣]. وصار الوقوف والجلوس كلاهما شاقاً.وتحوّل الحسن إلى السىء، ولم يبق

---

١٢ - قواعد الخطابة ص ٢٢

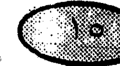
١٣ - هذه كناية عن قرب نهاية الحياة . فقد كان المصريون القدماء يعتبرون الأنف مصدراً من مصادر الحياة

لشىء أى طعم . وَتَقَدُّمُ السن جعل أحوال المرء سيئة فى كل شىء . فمرنى حتى أتخذ لى سنداً فى شيخوختى . وحتى أجعل من ابنى خليفة لى يحتل مكانى، فأعلمه عظات من يسمعون . وآراء من سبقوا.وهم الذين خدموا السلف فى العصور الماضية [١٤] لَيْتَهُم يعملون لك مثل ذلك.حتى يزول النزاع من بين الناس فأجاب الملك وزيره قائلاً:" عَلِّمْهُ الفقهَ. أولاً حتى يكون قدوةً لأولاد العظماء. ويتحلى بالطاعة ويدرك كل رأى صائب ممن يتحدث إليه.فليس هناك ولد أوتى الفهم من تلقاء نفسه . وهنا يتوجه الوزير الحكيم إلى ابنه قائلاً : لاتغتر بما حصلت عليه من العلم. فتستكبر، ولا تتكبر، ولكن اجعل الأمر شورى مع الجميع . شاور الرجل غير المتعلم كالمتعلم.لأنه ليس هناك حد للمعرفة.ولا رجل وصل إلى نهاية العلم بفنه.

وإن القول الحكيم نادر.وأكثر اختفاءً من الحجر الأخضر الكريم . ومع ذلك فقد يوجد مع الإماء اللاتى يعملن على أحجار الطواحين. إذا وَجَدْتَ رجلاً يتكلم وكان أكبر منك و أشد حكمةً فأصغ إليهِ.واحن ظهرك أمامهُ. ولا تغضب إلا إذا تَفَوَّهَ بالسوء. وعندئذ سيقول الناس:تَباً له من جاهل!!

---

١٥ - يقصد بذلك وزراء الملوك السابقين وهو يرجو بذلك أن يعين الملك ابنه خلفا له.



إذا رأيت رجلاً مساوياً لك يتجادل وأثار حديث السوء فلا تسكت . بل أظهر حكمتك وحسن أدبك.فإن الكل سيثنون عليك . وسيحسن ذكرك عند العظماء.[١٥]

وبهذا يتضح أن القدماء المصريين كانت الخطابة سلاحاً مؤثراً يستخدمه كافة الشعب المصرى القديم حكاماً ومحكومين بالفطرة والاكتساب . كما هو واضح من خطبة الفلاح الفصيح أوخطبة الوزير الحكيم بتاح حتب .

١٥ - الحكم والامثال والنصائح عند المصريين القدماء ص ٤٢ - ٤٣ . بتصرف.

الفصل الثانى

الخطابة فى العصر اليونانى

بلاد اليونان قديماً كان يسكنها قبائل مفككة تكاد كل قبيلة منها مستقلة عن الأخرى ، أو منعزلة عنها ، يسودها التنافس على أسباب العيش والحياة ، ولم يربط بين هذه القبائل إلا المجاورة واشتراك الأعمال ، وذلك لأنها مكونة من أجناس متنوعة نزحت من بيئات مختلفة إلى بلاد اليونان.

وخلال عدد من القرون ظلت هذه القبائل تتقارب وتتحد[١٦] فى آمالها وآلامها بعواطف جياشة، ومشاعر حساسة ، وخواطر مسعفة، وميل الى الافتتان فى بلاغة الكلام، وإلى النظر العام، والتفكير المرتب.

ينظر اليونانى إلى الموضوع نظرته إلى كُلّىٍّ. فيتناوله بالبحث والتحليل العقلى المنطقى الذى يربط الأسباب

---

١٦ - الخطابة وإعداد الخطيب د/ عبدالجليل شلبى . ص ١٥٨ – بتصرف .

بالمسببات، والعلل بالمعلولات[١٧]. وشجعهم على ذلك أن الناس حينذاك كانوا يجدون لذة فى الاستماع إلى متحدث بارع يتحدث إليهم فى موضوع من الموضوعات المحببة إلى نفوسهم.

وفى إلياذة هوميروس[١٨] خطب كثيرة.أوردها على ألسنة الآلهه والأبطال.فى القرن العاشر قبل الميلاد.

ثم لبست ثوباً أحسن مما قبله فى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد.فى عهد برقليس زعيم أثينا وأحد خطبائها المحبوبين لدى الشعب اليونانى.وبعده بقليل ظهر خطباء منهم: " إيسوقراطيس وديمستينيس"[١٩].وفى هذه دلالة على أن الخطابة ظهرت فى بلاد اليونان منذ عهد قديم ، مما أدى إلى بداية تدوينها ، ووضع قواعدها,وجعلها علماً كسائر العلوم.

---

١٧ - فن الخطابة للحوفى ص ٢٠٦ .

١٨ - الإلياذة أو الإلياسة نسبة يونانية إلى إليون عاصمة بلاد الطرواد. وهى الملحمة التى وضعها هوميروس على أسلوب بسيط وبناها على موضوع واحد. هو غيظ أخيل او احتدامه. والإلياذة على ما يكسوها من خيال وتصورات وتعبيرات شعرية هى كتاب اليونان المقدس شأنه مع اليونان شأن التوراه مع بنى إسرائيل فكل منها يسجل تاريخه وعاداته فى كتابه المقدس . يراجع كتاب الياذة هوميروس- لسليمان البستانى جـ ص ٢٩ - ٣٢ ط دار المعرفة - بيروت بدون تاريخ.

١٩ - فن الخطابة للشيخ / على محفوظ. ص ٢٠.

عوامل ازدهار الخطابة فى العصر اليونانى

توفر لدى اليونان كثر من العوامل . أو الأسباب التى أدت الى ازدهار الخطابة عندهم. من أهمها:-

١- كثرة الحروب وتواصلها بين القبائل المتنافرة والتى نزحت من جهات عديدة وسكنت أرض اليونان . وهذه الحروب مجال خصب للخطابة من أجل إثارة الجماهير. وتشجيع الجنود وفى مقدمة هذه الحروب:-

أ- الحروب التى كانت بين أثينا واسبرطة . والتى لم تنته إلا سنة ٤٠٤ ق م . وكانت نهايتها هى استسلام اثينا وزعامة إسبرطة على البلاداليونانية كلها . ولكنها لم تعمر طويلاً . فقامت مدينة طيبة مقامها سنة ٣٧١ق.م وهذه أيضاً لم تعمر طويلاً. فانتهت سنة ٣٦٢ق.م .

ب- حروب فليب المقدونى والد الأسكندر الأكبر ضد أثينا وطيبة والتى انتهت بقيام دولة مقدونيا عام ٣٦٢ق.م .

جـ - حروب الإسكندر الأكبر بعد موت أبيه عام ٣٣٦ق.م. ضد الفرس ثم فى بلاد الشرق الأوسط ما بين مصر والهند حتى مات عام ٣٢٣ ق.م وقد حقق انتصاراته الحربيه

فى ثلاث عشرة سنة فقط . وكسب شهرة واسعة وصيتاً ذائعا فى التاريخ كله فى فترة وجيزة حيث تولى الحكم وهو فى العشرين من عمره ، ومات وهو فى الثالثة والثلاثين.

وهذه الحروب والمنافسات مناخ خصب لازدهار الخطابة ونبوغ الخطباء وقد اشار الدكتور/ عبد الجليل شلبى رحمه الله تعالى ، الى هذه الأحداث ثم قال:- [20]وقد اعتمدت الحروب اليونانية فى شتى مواقفها على الخطابة ، ولهذا ظهر هناك خطباء لن ينساهم التاريخ من هؤلاء :-

"*سولون الأثينى*" وهو شريف وتاجر ثرى . وظهرت مهاراته الخطابية فى حرب قامت بين *أثينا ومجارا* بسبب تنازعهما على امتلاك سلاميس . فقام هذا الرجل يستنفر قومه بالخطابة وبالشعر . فاستولى على قلوبهم ومشاعرهم وآثار حميتهم و وقد أحبه الشعب واسلس له القياد......... وهو الى جانب خطابته الحربية مشرع وصاحب منهج إصلاح . وقد توج أعماله بتنازله عن سلطاته الحكومية عندما تمت مشروعاته الإصلاحية . ولا تزال صور من خطبة محفوظة فى

٢٠- الخطابة واعداد الخطيب ص ١٦٠ بتصرف

الآثار اليونانية. وهى تمتاز ببلاغتها . وقوة تعبيرها وعمق معانيها [٢١].

وهناك العديد من الخطباء اليونانين سيأتى ذكر بعضهم ان شاء الله تعالى فى نماذج من الخطباء وخطبهم.

٢- شيوع الحرية : عندما سادت الحرية فى بلاد اليونان وأبيح لكل فرد أن يعلن رأيه ويدافع عنه .وأن يقترح على الحكومة ما يشاء . نشطت الخطابة .وشعر الأفراد بحاجتهم إليها ونشأبينهم معلمون يعلمون الخطابة والجدل . ويدربون على حسن الحديث. ومحاولة كسب الجولة فى عرض رأيه وتأييده بتقديم الحجج وتوضيح الأسباب التى تدعوا إلى الأخذ بهذا الراى أو ذاك .

فإذا انتهى الخطباء المؤيدون أو المعارضون من خطبهم طلب من الحاضرين أن يعلنوا رأيهم .

والجماهير عادة تتأثر ببلاغة الخطيب وبيانه أكثر مما تتأثر بحججه المنطقية . فكان الخطباء يتبارون فى تنميق عباراتهم . واختيارأساليبهم والفاظهم ليقنعوا الجماهير ويستميلوهم.

---

٢١ - الخطابة واعداد الخطيب ص ١٦٠ بتصرف.

٣- ظهور طائفة السوفسطائيين [٢٢] بولعهم الشديد بالكلام وفنونه.

وكان لعملهم لونان مختلفان : أولهما :- إفساد المنطق. والجنوح إلى اقناع الناس والحكام بأدلة كثيراً ما تكون مضللة. ولكنها تستهوى السامعين. وثانى اللونين لعملهم:- أنهم شجعوا الخطابة وأشاعوها وجعلوها فناً مستقلاً له قواعده وأصوله [٢٣].

ومهما يكن الرأى فى عمل السوفسطائيين فإن تأثيرهم كان عظيماً فى رقى الخطابة . والبراعة في الدفاع عن الفكرة وعن ضدها.

فكان السوفسطائى إذا تناول الطرف الراجح فى موضوعه، قواه وأبرزه فى صور فنية من الخيال أو الجمال .

وإذا تناول الطرف المرجوح. وصل به الى درجة اليقين ، وكان الإعجاب بقلب الحقائق فى الموضوع لا يقل عن الاعجاب بالتصوير الذى يبرز العبارات فى ثوب جميل جذاب

---

٢٢ - لفظ يونانى معرب نسبة الى السفسطة وهى نوع من الاستدلال يقوم على الخداع والتمويه على الخصم ومنه كتاب السفسطة لارسطو وقد وجدت هذه الطائفة اليونانية فى القرن ٦ ق.م يقولون بتغير العالم وعدم ثبوت الحقائق . المعجم الفلسفى : مجمع اللغة العربية ص ٩٧

٢٣ - الخطابة واعداد الخطيب ص ١٦١

[٢٤] وكـان سـقراط – أبـو الفلسـفة – أول أمـره واحـداً مـن السوفسطائيين ولكنه أنف من طريقتهم وأبغضها . فأخذ على عاتقه تعليم الشباب المنطق والربط بين النتائج والمقدمات.[٢٥]

واعتمد في عمله على الحوار الهادئ. وإلقاء الأسئلة البسيطة ثم اعتراضه على الإجابة . حتى يهتدى مجاوره إلى الإجابة السليمة. وكان هذا الحوار نوعاً آخر من الخطابة آثاره بين أتباعه وأتباع السوفسطائين.

وخلال مائة عام أو من نحو سنة ٤٢٠ق.م إلى سنة ٣٢٠ق.م كانت الخطابة اليونانية فى قمة ازدهارها: رواجاً. و سمواً. وإتقاناً [٢٦].

ولما ألف أرسطو في الخطابة كتابه العظيم. وضع فيه من قواعدها. وأصولها.وأنواعها. وأقسام أدلتها. ما جعل كتابه دستوراً للخطابة.ومرجعا للدراسين.وكان من أثر هذا أن إمتزجت الفلسفة بالخطابة . وأن تمثلت البلاغة فى الخطابة [٢٧]. فصارت الخطابة فناً له قواعده وأصوله وأنواعه منذ ألّفَ

---

٢٤ - فن الخطابة للحوفى ص ٢٠٧

٢٥ - توصل سقراط الى ذلك بدراسة الخطابة دراسة عميقة . واسسها على الجدل واقامها على التدليل . وبناها على التركيب والتحليل النفسيين. واوجب على الخطيب أن يتعرف على نفسية الجمهور ليخطب فيه بما يناسبه ويلائم حاله

٢٦ - الخطابة واعداد الخطيب ص ١٦١

٢٧ فن الخطابة للحوفى ص ٢٠٨

أرسطو كتابه " الخطابة الذى لم يغادر صغيرة ولا كبيرة من أصول هذا الفن إلا دونه ونشره فيه . ومن هذا الحين صارت الخطابة فناً مدوناً[٢٨] وهكذا أخذت الخطابة دورها الممتاز فى بلاد اليونان جنباً إلى جنب مع الفلسفة.

إذاً:- " فى اليونان وجدت الفلسفة وكثر الجدل وقدأدى ذلك إلى اهتمام اليونانين بتعلم فنون القول وطريقة الخطابة وأسلوب التأثير المؤدى إلى استمالة الجماهير نحو الفكر المراد حملهم عليه ..

وقد ساعدت فطرة اليونان الخطابية على الامتياز فى الخطابة بعد تعلم أصولها [٢٩] .

حتى كان للخطابة منزلتها فى الدولة القديمة فأنشأ اليونان .... مدراس البيان لتعليم الخطابة والمنطق الفصيح وإعداد شباب أثينا للحياة العملية بهذه الوسيلة. ومن أقدم هذه المدارس مدرسة سقراط صاحب الباع الطويل فى الفصاحة والبلاغة فى القرن الخامس والرابع قبل الميلاد.[٣٠]

---

٢٨ - فن الخطابة للشيخ على محفوظ ص ٢١

٢٩ - قواعد الخطابة ص ٢٣

٣٠ - الخطابة فى صدر الاسلام د/محمد طاهر درويش جـ١ ص ٥

وقد أدى هذا كله إلى امتياز أثينا أولاً ببلاغة خطبائها. فكانت حقاً بلد الأدب وحسن الإلقاء. فبالخطب فى مجلس الأمة تُقَرِّرُ الحروب . وعقد الصلح. وتوضع القطائع والضرائب.وكل الشئون العظيمة. فللخطباء السلطة . وعلى الأمة أن تعمل بنصائحهم و مواعظهم.

وقد وصل الأمر بالخطابة عند اليونان أن تولى الخطباء قيادة الجيش أثناء الحرب . فقد عُيِّنَ كليون قائداً.وَعُيِّنَ ديموستيين فى قيادة حرب فليب.

وقد أصبحت الخطابة سلعة رائجة فى بلاد اليونان القديمة . خاصة بعد التأهيل المدرسى لها. حيث نجد الخطباء ينشئون خطباً ويبيعونها لمن يقوم بخطبتها . وقد ثبت أن – أشيل- أخذ أجراً من ملك مقدونيا.وأن – ديموستين- أَخذ مالاً من ملك الفرس.[٣١]

وهكذا برز الخطباء فى بلاد اليونان . مما دفع الكثير إلى تعلم أصولها وإتقان أدائهاطمعاً فى المزايا التى تعود عليهم من ورائها.

---

٣١ _ قواعد الخطابة ص ٢٢

أشهر خطبائهم وخطبهم

(ديموستين خطيب اليونان ٣٢٢/٣٨٤ق.م)

تعتبر حياة ديموستين نموذجاً فريداً للخطيب العبقرى فى كل زمان ومكان. وكانت عبقريته الخطابية أبرز معالم شخصيته. فكانت خطبه موضوعاً لدراسة الخطباء فى الأجيال التى تعاقبت بعده. حتى لقد قال كونتيليان :- إن طلاب البلاغة يجب عليهم ألا يدرسوا خطبه فحسب. بل يحفظوها عن ظهر قلب [٣٢] . وحكم عليه السابقون بأنه أمير الخطابة اليونانية. وأثنى عليه الخطيب الرومانى شيشرون. وكل هؤلاء رأوا من آثاره الخطابية أصح وأكثر مما وَصَلَنَا. [٣٣] وقد ولد ديموستين فى أثينا عام ٣٨٤ق.م ومات سنة ٣٢٢ق.م وهو من رجال السياسة والكفاح من أجل أثينا. وساعده فى كل أعماله ما له من مقدرة خطابية . وما امتاز به من لسن و بلاغة.

وقد نشأ ديموستين يتيماً . حيث مات أبوه وهو فى السابعة من عمره . وقد ترك له ثروة كبيرة بددها أوصياؤه.

---

٣٢ خطباء صنعوا التاريخ : أنور أحمد ص ٧

٣٣ الخطابة وإعداد الخطيب ص ١٦٨

ولكن يبدو أن يُتْمَهُ ومُعَانَاتِه منذ نعومة أظافره ووقوعه تحت ظلم أوصيائه، كان له بالغ الأثر في نبوغه ونضج عوده. ودفعه إلى الاعتماد على نفسه أولاً. ثم حُبُّهُ للكفاح والمعارك ثانياً.

حيث إنه لمابلغ الثامنة عشرة من العمر طالب برفع الوصاية عنه كما طالب الأوصياء بحساب عن الثروة ودخل معهم في نزاع قضائي دام لفترة طويلة، ليسترد حقوقه المغصوبة.

وإذا كان ديموستين لم يكسب من هذا النزاع مالاً كثيراً. فقد اكتسب معرفة بالقانون وإجراءات القضاء وامتلأت نفسه بغضاً لكل ظلم. وشغفاً بدراسة القانون لكي يتمكن من مخاصمة أوصيائه ومناقشتهم فتتلمذ على – إسايس- الذى كان من علماء القانون. والمشهور بالفصاحة والأسلوب الأنيق.

ولاحظ ديموستين أثناء مرافعاته الأولى في قضيته عجزه واضطرابه وخفوت صوته وتلعثمه في الكلام. فقد كان ألثغاً ثقيل اللسان. ولا يميز مخارج الحروف. وكان الناس يضحكون منه، ويسخرون من خطابته.

فصمم على استكمال ما ينقصه من عدة الفصاحة . ليكون خطيباً قديراً على الكلام والمرافعة . فأخذ يقرأ كتب الأدب والتاريخ . وأعجبته فصاحة الخطباء . وبهره ما يحظون به من إعجاب الناس بهم وتصفيقهم لهم . فتاقت نفسه ليكون خطيباً يشترك بفصاحته فى إدراة شئون الحكم والسياسة .

ويتحدث الرواة عن الجهود المضنية التى بذلها ديموستين فى تذليل ما اعترضه من صعاب . فقد شعر بأنه قد وُهِبَ نفساً طموحة إلى التحليق . ولكنه يحتاج إلى شىء من العزيمة والمثابرة . فصمم على النضال حتى يصل إلى القمة التى يريدها . وبدأ رياضة شاقة لا تعرف اليأس .

يروى المؤرخ – بلوتارك - أن ديموستين شيد لنفسه حجرة تحت الأرض . كان ينفرد فيها ليتمرن على الخطابة . وكان يقف أمام المرآة ليتخير الإشارات المناسبة وقت الإلقاء . وكان يضع الحصى فى فمه وهو يتكلم . ليحل عقدة لسانه . ويصعد الجبل عدواً وهو ينشد أبياتاً من الشعر بصوت مرتفع . أويقف على ساحل البحر . ويرفع صوته بالكلام حتى يطغى على هدير الأمواج .

وكان يحلق نصف رأسه ليرغم نفسه على ملازمة حجرته الشهر والشهرين. لا يرى الناس، منقطعاً إلى دراسته وتمرينه. وبعد سنوات من هذه الرياضة الشاقة، تكلل جهاده بالنجاح، ولم يعد يخشى الجمهور، فلما ارتقى بعد ذلك منبر الخطابة ملك الأسماع والقلوب . فلم يلبث أن أصبح خطيب أثينا الأعظم [٣٤].

ومن عجب أن هذا اللسان الذى كان يثقل فى فمه، أصبح لسان أثينا الذى ينفث السحر ويلهب الحماسة . حتى قال عنه فنيلون المؤرخ اليونانى: إننا إذ نسمع ديموستين لا نفكر فى كلماته . فهو يبرق ويرعد، وهو سيل يجرف كل شىء يعترض سبيله، فلا نستطيع أن ننتقده أو نعجب به، لأننا نكون قد فقدنا السيطرة على مشاعرنا.[٣٥]

وقد خصص- دايونيسياس- بحثاً عنه فقال : إنه سما بالنثر اليونانى إلى حد الكمال، بما قام به من مزج رائع بين عناصر، كانت لا تزال متفرقة فى ذلك الوقت. بل لقد فاق المتخصصين فى كثير من الفنون.

---

٣٤ - خطباء صنعوا التاريخ ص ٩.

٣٥ - السابق نفسه.

- فاق مدرسة- أنتيفون - فى الوضوح والصفاء، ومدرسة -ليسياس- فى الحماسة، ومدرسة -إيزوكرات فى التنوع والقوة والشعور العميق [٣٦].

- والواقع أن من يقرأ خطب ديموستين اليوم يشعر فيها بصدق اللهجة، وبالإخلاص الذى يوحى إليه الثقة فى الخطيب. ويبهره منها التدفق، وغزارة المادة، والمنطق السليم. ويجدها مزاجاً رائعاً من الموضوعية التى تقنع العقل والحماسة التى تثير الشعور . وكانت هذه من أخص خصائص أسلوبه الخطابى .

عبقريته :-

كانت عبقرية ديموستين عبقرية فذة، متشعبة متعددة الجوانب، مما جعله فريداً فى العالم القديم . فقد جمع فى شخصه بين الوطنى المتحمس، والسياسى البعيد النظر. والفنان النابغ الذى لا يُشَقُّ له غبار.

هذا هو ديموستين . وقد نضجت عبقريته واكتملت قوته.

٣٦ السابق ص ١٠

سياسته :-

كان مذهب ديموستين السياسى يقوم على الدعوة أن تكون بلده – أثينا- زعيمة البلاد اليونانية . وأن تقوم زعامتها على العمل لنفع اليونانيين جميعاً. فسخر مواهبه وعبقريته لخدمة وطنه. وقضى حياته كلها مجاهداً فى سبيل تحقيق مثل أعلى فى السياسة وحكم الشعوب. ومات فى سبيل ذلك كما يموت الأبطال والشهداء.

وكانت المرحلة الأولى لكفاحه السياسى موجهه إلى النهوض بروح الشعب الأثينى الذى كان قد نبذ تقاليده. وخمدت حميته. وانغمس فى اللهو.

لهذا قدم ديموستين برنامجاً عملياً لإصلاح الأنظمة السائدة بصورة تعزز الحرية. وتزيد فى ثروة الدولة. وتضاعف قوتها العسكرية .

وأخذ يطالب بإصلاح القوانين وإجراءات التقاضى . وينادى بأن تنتصر أثينا لكل مدينة يعتدى عليها. حتى تسود العدالة السياسية . ويزول الظلم والطغيان . ومن كلماته فى ذلك :-

" إن الظلم والخداع ونقض العهود. لا يمكن أبداً أن يؤدى إلى قوة حقيقية . إنها قد تؤدى إلى سيادة وقتية. ولكن الزمن لا يلبث أن يعصف بما شيدته من أحلام".

وكما أن الطبقات السفلى للمنزل يجب أن تكون قوية متينة. كذلك يجب أن تقوم كل سياسة على دعائم من الصدق والشرف [٣٨]

جهاده وكفاحه :-

يتمثل جهاد ديموستين الأكبر الذى وقف عليه حياته. ومات فى سبيله فى : تنبيه أهل أثينا إلى خطر - الملك فليب - والد الإسكندر الأكبر. وقد كان فليب ملك مقاطعة مقدونيا فى شمال بلاد اليونان . وكان يريد أن يبسط نفوذه على بلاد اليونان كلها.

فهب ديموستين – واتخذ من فصاحته سلاحاً شهره فى وجه فليب ليصده عن سلب الإغريق حريتهم واستقلالهم . وقضى بقية حياته يستنفر شعب أثينا للقتال. ويحثهم على الثبات والنضال.

---

٣٨ - السابق ص ١١

وقد اشتهرت هذه الخطب باسم الخطب الفيليبية. أو الفيليبيات.

الخطبة الفيليبية:-

هذه الخطبة قالها ديموستين فى وقت حرج جداً. كان الأثنيون فيه قد يئسوا من الحرب، وركنوا إلى التخاذل، ومسالمة فليب. فحاول فى هذه الخطبة أن يشعل فيهم روح النخوة والحماسة والوطنية. فقال:- "سادتى: يجب علينا بادىء ذى بدء. ألاَّ نيأس من حالة شئوننا الحالية. ولو أنها فى خطر. لأن عظم ضعفنا فى الماضى سيكون قوتنا فى المستقبل. ماذا أعنى؟

أعنى أنكم الآن فى متاعب. لأنكم لم تظهروا عزيمة لعمل واجبكم. وإذا ظلت الأمور كما هى- رغم ما يجب عليكم القيام به من مجهود شاق. فلا أمل فى التحسن، أود أن تفكروا فى القوة التى كانت لإسبرطة منذ أمد بعيد. والتى يتذكرها بعضكم، ويسمع عنها بعضكم الآخر، ومع ذلك فقد قمتم فى وجه تلك القوة بشرف ونبل، ولم تحطوا من قدر مجد وطنكم. فواجهتم الحرب غير هيابين، ولا مترددين لعدالة غرضكم.

لـو ظـن أحـدكم أن فيليـب لا يقهـر، نـاظراً إلـى ضـخامة القـوات التـى تحـت تصـرفه ، وإلـى أن مـدينتنا قـد فقـدت كـل الأماكن. لكان مُحِقًّا فى ظنه.وكـان اعتقـاده يستند إلـى أسـاس. ولكن لينظر ذلك الشخص إلى أننا فى وقت ما كنا نملك :-

" بودنا و ميثونى و .... وسائر تلك المقاطعة. وأن كثيراً من القبائل الخاضعة لـه الآن كانت حرة مستقلة . وكانت تفضل أن تكون تابعة لنا لا إلى مقدونيا.

لو أن فيليب كان قد شعر كما تشعرون . أن محاربة أثينا أمـر جلـل لأنـها تملـك كثيـراً مـن الحصـون التـى تشـرف علـى مملكته. عندما لم يكن لـه حلفـاء. لمـا فـاز بـأى انتصار. ولما وصل إلى تلك القوة العظيمة التى ترجفون منها الآن. ولكنه رأى بوضوح أن هذه الأمـاكن.مـا هى إلا جـوائز الحـرب التـى تمنح فى مسابقة حرة.

وأن أمـلاك مـن يتغيـب عن سوق الـوغى تـذهب طبيعيـاً لمن يتقدم إلى الحرب.طالباً أن يحصل عليها . وأن مـن يرغب فى العمل يجد.وفى المجازفة قد يحل محل من يهمل الفرص!!!

لا تظنوا أن فيليب إله آمن فى ممتلكاته إلى الأبد .. إن هناك رجالاً يبغضونه ويخافونه ويحسدونه.حتى من بين أقرب

خاصته وإنهم ليخفون هذا الشعور الآن.لأنهم لا يجدون منفذاً فى تباطئكم وإهمالكم ،فاخلعوا عنكم هذه العادة .

إذا ما سألت:متى تهبون من سباتكم و تقومون بواجبكم ؟ تقولون :- سيكون ذلك عندما يحين وقت الضرورة!!

خبرونى ياسادة !! أيها الأثينيون: حتى متى سكونكم وإخلادكم إلى التوانى؟متى تدب الحياة فى عروقكم. ويسرى الشعور بالواجب فى أعصابكم.ماذا تنتظرون؟ هل تنتظرون معجزة تهبط عليكم من السماء؟ أى دافع للنفوس الأبية لعمل الواجب.أقوى من تهديد مجدها بالزوال. وشرفها بالتمزق. وكلمتها بالتفرق،إنه لعار لن يفارقكم، ولن يمحوه الموت يوم يواريكم فى قبوركم !

هل الوطنية أن تكتفوا بالذهاب هنا وهناك.يسأل بعضكم بعضاً عما جاءه من أنباء فيليب. فيقول واحد :- إنه مات ، ويقول آخر بل هو مريض !

يا عجباً..!! عجباً يمزق القلب. أى نبأ هناك غير أن مقدونياً يسعى لقهر أثينا. وسحق مجدها. واستعباد اليونانيين جميعاً. ماذا عسى أن تصيبوا من المغانم لو مرض فيليب أو مات. أو انقضت على رأسه مصيبة من السماء؟!

وحق الآلهة: لئن لم تهبوا من رقادكم. ليتسلطن عليكم فيليب آخر. ليس دون هذا فى الشدة عليكم. فإن فيليب ما قوى اليوم إلا بضعفكم. ولا تحرك إلا بسكونكم.

ثم يستنكر ديموستين فكرة الاعتماد على الجنود المرتزقة المأجورين. فيقول: لا تقولوا المرتزقه. نريد رجالاً أحراراً أنبتتهم تربة أثينا. يرون سعادتهم فى عزها. وشقاءهم فى ذلها. من أرضها كانت بدايتهم. وفى أرضها نهايتهم. منها خلقوا. وإليها يعودون مرة أخرى. أولئك هم أباة الضيم. الذين يبذلون دماءهم لتخليص شرفها من الأذى......!

ثم يحذرهم من الحرب المباغته. ويدعوا إلى الإستعداد لها قبل وقوعها. فيقول:- إن الحروب لاضابط لها ولا قانون. فهل تريدون الانتظار حتى يأتيكم نبأ الإغارة المفاجئة. فيضيع الوقت فى المشاورة. وحشد الجيوش وتدبير نفقاتها. حتى

---

٣٩ قد يكونم فيليب أو غيره حين موته.

تفوت الفرصة. وتسقط المواقع التى نريد الدفاع عنها. فى يد أعدائنا. قبل أن نخف لنجدتها. إذا كنا فعلنا ذلك فيما مضى فلأنه لم تكن لنا تجارب. ولم نكن قد ابتلينا بمثله. أمّا الآن وقد عظم الخَطْبُ. وتفاقم الأمر.

وأصبح فيليب على أبوابنا. فقد وجبت علينا المبادرة إلى تغير هذه الخطة الخرقاء.[٤٠] بهذه الكلمات التى تتقد حماساً وإخلاصاً كان ديموستين يدعو الأثينيين إلى القتال. ولم تكن هذه الخطبة وأمثالها مجرد عبارات حماسية تستهوى السامعين. ولكنها تحوى من أدلة الإقناع ما جعل فيليب نفسه يقول عن ديموستين:- إنى لأعطيه صوتى ليعلن الحرب على بلادى. وأُسَلِّمُهُ قيادة الجيوش. وما أعظم هذه الشهادة من عدوه الذى كان هدفاً لسهام بلاغته. والفضل ما شهدت به الأعداء!!

تحليل الخطبة:-

هذه الخطبة تبين مدى حماسة ديموستين وغيرته الوطنية. وأن الأحداث والخطوب التى كانت تمر بها بلاده كان يواجهها مترصداً لها. يلقاها أقوى ما يكون إيماناً.

٤٠- خطباء اليونان: ج. ف. ديسون. ترجمة أمين سلامة. ص ٥ ط سلسلة الألف كتاب.

وأُثبت جناناً. وأُفصح لساناً. وملتزماً الواقعيةَ والموضوعيةَ,وهذا ما نلمسه فى هذه الخطبة حيث:-

= بدأها بدعوة قومه إلى عدم اليأس من إصلاح ما هم فيه من سوء. وهى بداية تبرز براعة الاستهلال الذى شجع المستمعين واستمالهم إلى الاستماع لقوله.

= ثم عَرَّجَ على التزكير بحالتهم السيئة التى يعانونها,مع الإيجاز فى تصويرها,لأنها حالة محسوسة ملموسة يعيشونها ليلاً ونهاراً.

أهداف الخطبة:-

إن الهدف الأساسى من هذه الخطبة هو تشجيع الأثينيين على حرب فيليب,وهذا الهدف هو العنصر الأساسى الذى تدور عليه الخطبة,من أولها إلى آخرها. ويتمثل ذلك فى عدة أمور منها:-

١- تذكيرهم بانتصاراتهم العظيمة على إسبرطه. وهذا مما يبعث الأمل فى نفوسهم ويشجعهم على المواجهة وخوص المعارك فيحققوا النصر. كما حققوه من قبل.

٢- موازنته بين تكاسل الأثينيين. وإقدام فيليب. وأنه لو كان على مثل شعورهم لَتَوَانَى وَتَكَاسَلَ مِثْلَهُمْ. ولكن تَكَاسُلَهُمْ شجع فيليب على الإقدام.حتى حقق كثيراً من الممتلكات التى تعتبر جوائز شجاعته وإقدامه.

٣:- ذكره أن تخاذلهم وتوانيهم هو الذى هيأ لفيليب تقدمه. وأنه لو لم يكن فيليب هو الذى امتلكهم لظهر شخص آخر مكانه. لأن الأرض التى ليس لها حام يطمع فيها كل إنسان.

٤- تذكيره بما كان تحت أيديهم من مدن اليونان. وحملهم مسئولية ما حل ببلادهم.

فالخطبة إذاً مليئة بعبارات التوبيخ. كما هى مليئة بصور التشجيع والإغراء.

يضاف إلى هذا: أن هذه الخطبة وأمثالها لهذا الخطيب تعتبر فى نظر المؤرخين من أبلغ ما خلف الإغريق من خطب. كما أنها اتخذت نماذج يحتذيها الخطباء. و بهذا

يعتبر ديموستين. خطيب اليونان. كما يعتبر هوميروس شاعرها. وشخصية هو ميروس غير مقطوع بوجودها وشخصيه ديموستين مقطوع بوجودها. وأعماله

حقائق تاريخية. كان خطيباً سياسياً واجتماعياً. وخطيباً قضائياً. وَمُعَلِّمَ خطابة. وكان لخطبه ميزة خاصة هى: فخامة الأُسلوب. واختيار الألفاظ مع بساطة الموضوعات والفكرة. ولا تزال آثاره باقية. وتعتبر خطبه نماذج يحتذيها من يريدون إجادة الخطابة.

وقد برز كثير من الخطباء والفصحاء فى العصر اليونانى *أمثال: بريكليس، ولوسياس. وإيسوكراتيس.* وغيرهم. ولكن يبقى إمامهم- ديموستين- !!!

****

الفصل الثالث

الخطابة فى العصر الرومانى

ترتبط الخطابة فى أى دولة بنظام الحكم فيها. وكان نظام الحكم الرومانى منذ نشأته ملكياً مطلقاً. ثم تحول إلى نظام جمهورى منذ سنه ٥٠٠ ق م.

وهذا النظام الجمهورى يقوم على تولية الحكم لحاكمين فى وقت واحد. يختارها الشعب. يحمل كل منهما لقب- قنصل- ومدة حكمها لا تزيد عن عام واحد. وكان يعاون الحاكمين مجلس من النبلاء والأشراف ذوى المناصب الرفيعة فى الدولة. ويبلغ عددهم نحو السبعين عضواً. ثم سمح بوجود ممثلين من الشعب لم يزيدوا على عشرة أشخاص..ولما كانت الخطابة لا تزدهر إلا فى جو تملؤه الحرية. فإن حياة الرومان فى هذا العصرلم تذخر بتاريخ خطابى كبير. فظهر بين الحين والحين خطباء. ومواقف تشجع على الخطابة.- ذلك أن شدائد الحياة وأزماتها تدعوإلى الخطابة.وتظهر الخطباء. ومن أشهر خطباء هذا العصرعلى الإطلاق :-

شيشرون- ١٠٦-٤٣ ق.م- هو: ماركوس تلليوس شيشرون. ولد من أسرة ثرية. محبة للعلم والفن.من طبقة الفرسان. فى مدينة- أربينوم الإقليمية- فى ٣يناير ١٠٦ ق.م. ولما كان والد[٤١] شيشرون ذكياً طموحاً حرص على أن يعلم ولديه: شيشرون وكوينتوس تعليماً ممتازاً فى الفلسفة والخطابة. إذ أرسلهما إلى روما. ثم إلى بلاد الإغريق للدراسة. وفى روما درس شيشرون على يد آيليوس ستيلوبرا يكونينوس أول عالم وفقيه رومانى. وتحاور شيشرون فى روما مع المؤلف التراجيدى أكيوس. ولازم الأخوين سكايفولا. وأحدهما: عراف. والثانى كاهن.وكلاهما من

---

[٤١] - عاش أبو شيشرون إلى أن صعد نجم ابنه فى عالم السياسة والأدب. إذ مات عام ٦٣ق.م إبان حملة شيشرون الانتخابية لتقلد منصب القنصلية

الفقهاء فى القانون.وقد لفتت لباقة شيشرون نظر لوكيوس كراسوس الخطيب دافع الصيت. وشغف شيشرون حباً بالقراءة والدراسة وانشغل بهما عن مباهج روما. إذ كان يحلم بأن يلعب دوراً بارزاً فى الحياة العامة. ولعل صاحب أكبر أثر على شيشرون من حيث تعلم الخطابة هو الخطيب الرودسى مولو الذى كان يقيم آنذاك فى روما.

وعندما كان شيشرون فى الثامنة عشرة من عمره. حدث أن زار روما أحد الفلاسفة الكبار. وهو- فيلو من لا ريسا- رئيس الأكاديمية الأفلاطونية الجديدة فى أثينا. وقد لازم تأثير هذا الفيلسوف شيشرون طول حياته. ولقد تمتع- فيلو- بميزة قلما نجدها فى فيلسوف أوخطيب. ألا وهى حسن الاستماع. فهو يقف إلى جوار محدثه منصتاً لكل كبيرة وصغيرة. قبل أن يشرع فى الحوار معه.

وعاد شيشرون من رحلته الدراسية موفور الصحة شديد الحماس لممارسة مهمات المناصب السياسية العامة.

فانتخب حاكماً ماليلكوايستور – عام ٧٥ق.م لمدة سنة فى غرب صقلية.حيث فاز بثقة الصقليين.وفى شيخوخته كان

يزهو بأنه أعاد كشف قبر أرشميدس الذى كان الصقليون قد نسوه.وكانت غابة من نبات العليق تغطيه .

وفى عام ٦٦ق.م أختير شيشرون حاكماً قضائياً – برايتور – ومن الجدير بالذكر أنه شغل هذا المنصب والمنصب السابق فى صقلية.وهو فى أصغر سن يسمح بها القانون.وهذا ما كان شيشرون يفخر به دائماً.وفى تلك الفترة أى فى عام ٦٧ق.م تقريباً امتلك شيشرون أول مزرعة ريفية له كانت حبيبة إلى نفسه حتى أطلق اسمها على أحد مؤلفاته.وفى عام ٦٦ ق.م أثناء تقلده لمنصب الحاكم القضائي ألقى شيشرون خطبة عن منح السلطة العسكرية العليا- أمبريوم - لجنايوس بومبيوس – حيث وضع نفسه وجهاً لوجه مع المعارضة الإرستقراطية القوية .

فمن المؤكد أن شيشرون قد وُوجِهَ مواجهة شديدة من قبل الارستقراطيين والنبلاء.وهو يشق طريقه فى معترك السياسة.

ربما أُعْجِبُوا بثقافته الواسعة.وفصاحته المؤثرة.ولكنه لم يكن برأيهم ممن يستحق أن ينضم إليهم أو يشاركهم لعبة السياسة.وهذه المقاومة زادت شيشرون عناداً وتصميماً .

المهم أنه فى هذ الخطبة المشار إليها أيد اقتراح نقيب العامة – مانيليوس – بمنح قيادة الحرب ضد ميتريداتيس فى آسيا لبومبى الأكبر، وهذه أول مرة يعلن فيها شيشرون على الملأ إعجابه بهذا الزعيم الرومانى،وسيظل شيشرون على ولائه له،من الآن فصاعداً مع بعض فترات الانقطاع بين الحين والآخر.

وفى ذلك الوقت بدأت أول خيوط مؤامرة كاتيلينا حيث انتخب شيشرون قنصلاً عام ٦٣ ق.ب. وهو أول رجل جديد يظهر فى عالم السياسة الرومانية منذ عام ٩٤ ق.م ولولا تخوف الناخبين الأرستقراطيين لرشحوا زعيمهم كاتيلينا لمنافسة شيشرون فى نفس المنصب فى نفس العام.

واستطاع شيشروناً يقنع مجلس الشيوخ بخطورة مؤامرة كاتيلينا،واستصدر منه القرار الأخير ضد المتآمرين . وَفَرَّ كاتيلينا من روما إلى أتباعه وجيشه في إتروريا.

وكان اكتشاف مؤامرة كاتيلينا وفضحها والقضاء عليها بمثابة ذروة النجاح السياسى الذى حققه شيشرون. وفى أثناء ولايته ألقى أربع خطب ضد كاتيلينا أظهر فيها مخاطره

ومؤامراته. وبها حصل شيشرون على التأييد المطلوب لحفظ الأمن.

ويمكن أن نستنبط من هذا،أن سيرة شيشرون ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بعالمى :- السياسة والأداب . وذلك لأن اسمه غالباً ما يتردد فى كتب التاريخ السياسى،لأنه يشكل قطباً من أقطاب السياسة فى العصر الرومانى .

أما فى عالم الأداب فيكفيه فخراً وشرفاً أن اسمه ملأ العصر الرومانى كله ، فسيرته الأدبية حافلة بالنشاط . متعددة الإنجازات . كثيرة الاتجاهات،مثمرة فى تأثيرها . ويمكن إجمال هذه السيرة الأدبية فى أربعة جوانب مهمة :-

أولها:- الخطابة ثانيها :- الرسائل

ثالثها:- الأشعار رابعها: الفلسفة

والذى يهمنا فى هذا المقام من هذه المجالات :-

الخطابة

إن شيشرون يعد إمام الخطابة اللاتينية . وكان عفيفا نزيهاً فى حياته الخطابية ، وإذا كان يوبليوس فرجيليوس [٤٢] أعظم شاعر أنجبته روما فى هذا العصر. وشيشرون أعظم خطيب . فإنا نرجح كفة شيشرون لسبب واضح جداً. وهو أن فرجيليوس كان صدى لهوميروس وملحمته الكبيرة الإلياذة ليست إلا صورة من ملحمة هوميروس الإلياذة . ولا يبقى له إلا تعبيره وبلاغته . أما شيشرون فيبدو نسيجاً وحده ، كما يبدو اعتماده على ثقافته وتفكيره الخاص . وهو فى نظر المؤرخين . خطيب وأديب وكاتب. و صفة الخطابة على أى حال سياسية أو قضائية . هى أبرز صفاته [٤٣] .

فيعد شيشرون أعظم الخطباء الرومانيين . وهو الوحيد الذى بقيت بعض قطع من خطبه ورسائله الأدبية . فى ثمانية عشرة مجلداً . نشرت عام ١٨١٣م . وفيها ثلاثة مجلدات تحتوى على مقالات فى البلاغة، وستة مجلدات من الخطب

[٤٢] - ولد بالقرب من مانتو فى ١٥/١٠/٧٠ ق.م

[٤٣] - الخطابة وإعداد الخطيب ص ١٨١

التى كتبت لإلقائها فى المناسبات أو المحاكم [٤٤] والتى بلغ عددها سبع وخمسون خطبة بالإضافة إلى مقالاته الفلسفية والتى منها : مقالات فى الشيخوخة ، والصداقة ورسالة فى طبيعة الآلهة. وأخرى فى النهاية الحقة للإنسان وفن التنبؤ .

والتى يُصِرُّ فيها على التفرقة بين الديانة والخزعبلات . ورسالة عن القدرة التى يدافع فيها عن إرادة الإنسان فى مواجهة الأقدار . ورسالة عن الواجبات التى أهداها إلى ابنه ماركوس ، ويرسم فيها منهجاً قوياً لسلوك المواطن الشريف [٤٥]

وقد ترجمت آثاره إلى كثير من اللغات . أمّا خطبه فلا تزال إلى الآن مثالاً يحتذى من حيث جودة الأسلوب . ورصانة التعبير ، وقوة الحجة وترتيب الأفكار . وكان شيشرون يفخر بخطبه ويدرك أن هذه الخطب تهيء السبيل إلى الأدب الرومانى ، ولذلك أحس بوقع انتقادات منتقديه ولم يسعه إلا أن يدافع عن نفسه. فكتب عدة رسائل طويلة فى فن الخطابة. وقد لخص فى بعضها تاريخ البلاغة الرومانية فى حوار واضح بارع . وضع فيه القواعد التى يجب اتباعها فى تاليف

٤٤ - الرومان : هرباور ترجمة عبد الرازق يسرى ص٦٦ .
٤٥ - الأدب اللاتينى ودوره الحضارى د/ أحمد عثمان ص ١٦٠ عالم المعرفة رقم --- ١٤١ - صفر ١٤١٠هـ . سبتمبر ١٩٨٩م.

الخطب وفى الإيقاع والأداء ... وقال :- إنه قد حذا فيه حذو ديموستين, وأتهم منتقديه بأن خطبهم الفاترة الخالية من العواطف تنيم السامعين . أو تجعلهم يفرون منهم .

وتوضح السبع والخمسون التى وصلت إلينا من خطب شيشرون جميع الحيل التى يلجأ إليها الخطباء الناجحون من حيث :- جودة الموضوع وإتقانه مما يجعله يفيض حرارة وحماسة .

أ – إدخال السرور على المستمعين بالفكاهات والنوادر .

ب – إثارة كبريائهم وأهوائهم وعواطفهم ووطنيتهم وتقواهم

جـ – عرض أخطاء المعارض له أو المؤيد . سواء أكانت صحيحة أم مما يرويها الناس عنه. وسواء أكانت تمس الشئون العامة أم تمسه هو نفسه .

د – حذق الخطيب فى تحويل انتباه السامعين من النقط التى فى غير صالحه, وغمرهم بفيض من الأسئلة الخطابية. يضعها بحيث تكون الإجابة عنها صعبة أو مؤذية . ثم يكيل لهم فى جمل موزونة . عباراتها قوية. قوة السياط, و تيارها الجارف يغمر المستمعين.

وجدير بنا فوق هذا أن نقر بأن خطب شيشرون من البلاغة الخطابية أكثر مما فيها من الحكمة الفلسفية . وأكثر مما فيها من الفطنة أو التعمق القانونى . ولكنها بلاغة ليس كمثلها بلاغة قط .[٤٦]

إن خطب ديموستين نفسه لم يكن فيها هذا التصوير الواضح الحيوى . وهذه الفكاهة الغزيرة . ومما لا جدال فيه أننا لا نجد أحداً قبل شيشرون أو بعده قد أكسب اللغة اللاتينية ما أكسبها هو من سحر وسلاسة .وقوة عاطفة وجمال .

لقد كانت خطبه أسمى ما وصل إليه النثر اللاتينى . وقد كتب إليه قيصر وهو يهدى إليه كتابه فى التشبيه يقول:- (لقد كشفت كل كنوز الخطابة ، وكنت أول من استخدمها . وبذلك كانت لك اليد الطولى على جميع الرومان ، وكنت مفخرة وطنك ،لقد نلت نصراً دونه نصر أعظم القواد لأن الذهن البشرى أنبل من توسيع رقعة الامبراطورية الرومانية).[٤٧]

فما أجمل لاتينية شيشرون ، وما أسهل قراءتها وما أسلس لغتها وأوضحها ... لقد كان إذا قص حادثة أصبغ عليها

---

٤٦ - هذا من وجهة نظر ول ديورانت الخاصة . أما نحن فى الإسلام فنؤمن يقينا بأن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو من أوتى جوامع الكلم . وكان قمة الفصاحة والبيان . وذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء من عباده .

٤٧ - قصة الحضارة : جـ٩ صـ ٣٣٠

من الحيوية التى تسرى فى خطبه فتسترعى الأسماع ، وتسحر الألباب . وإذا وصف شخصاً أظهر فى هذا الوصف من البراعة ما يجعل القارىء يأسف معه لأنه لم يجد متسعاً من الوقت يمكنه من أن يكون أعظم مؤرخى روما .

وإذا انطلق فى الخطابة أفاض على السامع . جملاً متزنه , جميلة اللفظ قوية العبارة , وجعل الجمهور يدوي بالتصفيق والاستحسان .

فإذا كانت آراؤه هى آراء الطبقات العليا فقد أرد أن يكون أسلوبه أسلوب الشعب . يصل إلى جميع المستويات الفكرية والثقافية .

ومن أجل هذا نراه يبذل جهده لكى يكون هذا الأسلوب واضحاً لا غموض فيه وأن تكون الحقائق التى يوردها . مما يهز مشاعر السامعين هزاً . وهو يمزج المعنويات بالنوادر والفكاهات .

وملاك القول :- إن شيشرون قد خلق اللغة اللاتينية خلقاً جديداً فوسع نطاق مفرداتها . وصاغ منها أداة مرنة للتعبير عن الفلسفة وجعلها صالحة لإستيعاب الآداب والعلوم في أوربا الغربية سبعة عشر قرناً من الزمان ، وإن الأجيال التى

جاءت بعده لتذكره على أنه مؤلف أكثر منه رجل سياسة ، ولما أن نسى الناس ما قام به من أعمال مجيدة خلال فترة توليه منصب القنصل أو كادوا ينسونها على الرغم مما فيها من ذكريات طيبة ، ظلوا يمجدون فتوحه فى عالم الأدب والفصاحة.

وإذا كان من عادة الناس أن يمجدوا الصورة ، كما يمجدون المادة وأن يعظموا الفن كما يعظمون العلم و السلطان فقد نال قيصر وحده . ولم يغفر هو لروما هذا الاستثناء الوحيد [48].

وأرى أن شيشرون فاق قيصر فى الفصاحة والبلاغة . وإن فاق الأخير فى السياسة والملك !!!

نموذج من الخطابة

تنافس شخصان هما :- ميلون – وكلوديوس – على وظيفة القنصلية وكل منهما له أتباعه ومناصروه الذين يصل بهم إلى تحقيق أهدفه السياسية ورأت الحكومة لدد الخصومة بينهما فعدلت عن شغل الوظيفة .

٤٨ - السابق جـ٩ صـ ٣٣٩ – ٣٤٠

وقلما كان يمر يوم واحد ، دون أن توضع قوة هؤلاء المناصرين موضع الاختيار ومن ذلك :-

مهاجمة كلوديوس لشيشرون على الملأ فى أحد شوارع المدينة واحراق كلوديوس بواسطة أجرائه لبيت ميلون .

وشاءت الأقدار أن يتقابل كلوديوس بأتباعه ، مع ميلون بأتباعه . ويتعرض أتباع الأول للآخرين . ويخرج كلوديوس فى كفه بضربة من رمح .ويرى خصمه أن الفرصة سانحة للتخلص منه ، فيأمر أتباعه بالإجهاز عليه وقتله .

ومع أن أتباع كلوديوس كانوا يعلمون ما يدبره من مؤامرة لقتل ميلون لو تمكن منه إلا أنهم رفعوا كلوديوس إلى مقام الشهداء . واحتفلوا بجنازته احتفالاً كبيراً . وجاءوا بجثته إلى مجلس الشيوخ .

ويوضع الجثمان على منصة الخطابة مضرجاً بدمه ، فتهيج الخواطر . ويسرف خصوم ميلون فى الإغراء به . والحض على الأخذ بثأر القتيل ويرجع ميلون لتبرير فعلته التى فعل . ويبذل الجهود . فما تغنى عنه شيئاً .وأخيراً يفر ميلون إلى مرسيليا انتظاراً للحوادث . ويتعرض شيشرون للدفاع عنه . ويصل إليه هذا الدفاع فى منفاه فيقول

لشيشرون : لولا دفاعك ما طاب لى هذا السمك الهنىء. الذى آكله فى مرسيليا .[٤٩] وهذا هو نص الخطبة التى ألقاها شيشرون فى الدفاع عن ميلون :-

أيها القضاة: ربما تعرونى هزة من الخجل وربما أحسست بالرعشة تسرى فى شفتىّ حينما أفتحهما لأدافع عن قاتل. ولكنى أدافع عن أشجع الرجال وأكرمهم. ويرجح عندى أن ميلون حينما ارتكب جريمته كان غائباً عن كل شىء. إلا عن سلامة الوطن ، فمن المخجل إذاً ألاّ أدافع عنه بنفس الروح التى أجرم بها .

أعترف أن هيئة هذه المحكمة غير العادية تخيف نظراتى . إنى أسرحها هنا وهناك . فلا أرى هيئة المحكمة القديمة تلك الهيئة التقليدية التى تعودناها في محاكمنا.

إنى أرى المقاعد التى تشغلونها خالية من جموع الشعب الزاخرة الضاغطة التى تعودت أن تسمعنا فى مثل هذه الظروف.

إن هذه الجنود التى تسد علينا المنافذ والأبواب من شأنها ألا تبعث الطمأنينة فى نفس الخطيب . ومهما تحدثتم عن

٤٩ - قصة الحضارة صـ٣٦٧، ٣٦٨.

مهمتها فى حفظ النظام . وعن الحاجة إليها بل عن ضرورتها ، فليس فى وسعكم أن تنكروا أثرها السىء . فإن منظرها يثير الشعور بالخوف . ونخشى أن يختلط ذلك الخوف بالثقة التى تستمدونها من الشعب ، ولو أننى اعتقدت أن هذا التسليح إنما اتخذ ضد ميلون وحده لا استسلمت للظروف ، لأننى أعلم أن شقشقة اللسان لا تغنى شيئاً أمام شقشقة الحسام . ولكن ميولى العادلة التى لا توازيها إلا عدالة بومبى[٥] تجعلنى فى مأمن وأسكن إلى مخاوفى .

وإن حكمتها ستمنعها حتماً أن تسلم رجلاً مسالماً نفسه إلى حديد الجنود .

إن عدالة بومبى ستمنعها من أن تسلح السلطة العامة فيها هذه الكثرة التائهة .

وأرى أخيراً هذه الإحاطة التى تأخذنا من كل جانب ليست فى الحقيقة أعداء تتربص بنا ، لكنها احتياطات تعمل بالعكس على حمايتنا ..

أما فيما يتعلق بالشاهدين – وأقصد هنا المواطنين الذين جاءوا لسماع المحاكمة وعيونهم تخترقنا من كل جانب – فإنى

٥ـ لما بدأت روما تتوسع فى ممتلكاتها وتغزو اليونان ظهر قائد كبير هو بومبى الذى قضى على قراصنة البحر الأبيض المتوسط . الذين كانوا يهددون تجارة روما . فاختاره الشعب ليكون رئيساً على البحر المتوسط ولما أثبت كفاءته أختير على آسيا الصغرى ، فمد فتوحاته إلى الفرات وإستولى على سوريا ، فأخضع القسيس الأكبر فى القدس لسلطان روما فاختاره الشعب رئيساً على روما كلها وسمى الرئيس الأعظم .

أؤكد أنه ليس فيهم من لا يرجو التمنيات الطيبة لخلاص ميلون ،وليس فيهم من لا يلتمس له المعذرة.وإلا يكن له فلأولاده ، وإلا يك لأولاده فلوطنه. طبقة واحدة هى التى تعمل ضدنا هم الذين غذاهم كلوديوس من السلب والنهب والمصائب التى وقعت على رأس الشعب . إنهم مدفوعون للقبض على ميلون. إن صيحاتهم – إذا كانوا يجرؤون على إسماع أصواتهم – يجب أن تنبهكم إلى مواطن كريم طالما هاجم من أجلكم هذا الصنف من الناس. طالما أخرس صيحاتهم البذيئة ضدكم ليفرخ روعكم . إذاً ولتطمئن نفوسكم.

لو كان لكم لحظة من لحظات حياتكم . أن تفوهوا بذكر رجال شجعان فضلاء ، وأن تمجدوا مواطنين محترمين لِمّا قدموا من خدمات.

ولو أن فرصة عرضت لقضاة عدول مختارين من أكبر الطبقات.ليظهروا رعايتهم التى طالما أحاطوا بها كثيراً من الناس . لكانت هى اللحظة التى نحن فيها .

أيها القضاة: إنكم تملكون كل شىء فى موقفنا.

أتحكمون علينا نحن الذين أخلصنا لسلطتكم – أن نسفح الدماء أبداً؟

أم نستطيع بعدما قدمنا أن ننتظر منكم الشجاعة والحكمة فتكفكفوا دموعنا. وتخففوا شيئاً من شقوتنا؟

ونرجع فنقول :- ما أعظم المحنة . وما أشقى الحياة . وما أشد ما نعانيه!

لقد حبسنا على خير الجمهورية كل ما نملك . فى أمل أن نكافأمكافأة شريفة. وها نحن أولاء أصبحنافىأشد العذاب.

يستطيع الشعب وسط هذه الزوبعةالجائحة أن يصب غضبه على رأس ميلون مادام هو المخلص لمواطنيه.الذى وجه جهده لعاصفةالأشرار. ولكن الذى ما كنت أتوقعه هو أن يحاكم ميلون أمام جمعية مؤلفة من طبقة ممتازة . أو يجد أعداؤه الوسيلة لا للمطالبة بإجراءات قاضية على حياته فحسب.بل قاضية أيضاً على شرفه وعلى كرامته.

على أن لا أتكلم فى محاكمة ميلون . ولا فيما قدمه للوطن . إلا بعد أن أبين أن كلوديوس هو الذى تعرض له ليسلبه حياته .

إننى لا أطلب عطفكم على ميلون لقاء ما قدم للأمة وللدولة . وحتى إذا كان فى موت كلوديوس خلاص للأمة

وللوطن . فإنني لا أطالبكم بتمجيد بطولة القاتل ولا بتهنئة الشعب على الخلاص من المقتول ، ولكن حينما تتضح لكم جريمة خصمه الغبي أتوجه إليكم بالرجاء. وأطلب باسم العفو – إذا فقدت كل أمل فيما يقى لنا – أن يترك لنا في الأقل حق الدفاع عن حياتنا ضد أسلحة السفاكين وجرأتهم......

ماذا في الوقائع التي سردتها لكم أيها القضاه؟

إن المعتدى قد قتل . و أن القوة قد قوبلت بالقوة وأن الشجاعة قد تغلبت على التهور . ما أقول : إن هذه الحوادث كانت من مصلحة الجمهورية . ومن مصلحتكم أنتم ، ومن مصلحة كل المواطنين الرومان.فإن هذا القول الحق عن ميلون شيئاً . ولقد فر . ولكن بكرامة الجمهورية معه.

فإذا أقررتم بعد ذلك أنه مذنب . فليس عندى ما أقوله لتبرير موقفه .

و إذا كان العقل والحاجة والتقاليد الاجتماعية تلزم المتمدينين والمتوحشين والأناسي والحيوانات أن تستعمل كل ما تملك من الوسائل لدفع الضرر أو التعدى على الحياة فإنكم لا تستطيعون الحكم على ميلون .

اللهم إلا إذا حكمتم فى الوقت نفسه بأن الإنسان الذى يقع بين يدى قطاع الطريق يجب أن يموت بأسلحتهم .. فإن لم يمت بأسلحتهم ، فليمت بقضائكم . [٥٢]

هذه هى خطبة شيشرون التى دافع فيها عن ميلون الذى قتل كلوديوس حتى استمال عقول وقلوب القضاة فى التعاطف مع القاتل . لأن أعماله الوطنية وغيرته القومية.هى التى أدت به إلى ارتكاب جريمته فلتشفع له وطنيته فى ارتكاب جريمته

وبعد فترة من عهد شيشرن ظهرت المسيحية وانتشرت ببطء بين الرومانيين . ولم يعبأ بها أباطرة الرومان أول الأمر . ولكنهم لمسوا – فيما بعد – فيها خطراً يهدد ملكهم . فوقفوا فى وجهها. وأذاقوا معتنقيها ألوان العذاب .

وفى نفس الوقت فقدت الوثنية سلطانها على نفوس الناس . فأقبلوا على المسيحية رغم مايواجهونه من صنوف العذاب.

ولما تولى الامبراطور قسطنطين مقاليد الحكم . وجد المسيحية توشك أن تهز عرشه . فقررها ديناً رسمياً للدولة .

---

٥٢ - الخطابة :د/ نقولا فياض ص١٥ ط دار الهلال بمصر ١٩٣٠م. وفن الخطابة للحوفى ص٢١٢

ثم أخذ يكره الناس عليها.ولكن ما لبث المسيحيون أن انقسموا على أنفسهم . واختلفت آراؤهم فى المسيح عليه السلام . فسببوا لأنفسهم عذاباً من لون جديد!!!!

وقد ظهرت فى العهد المسيحى الخطابة بشكل ملموس . وظهر خطباء بارعيين . إذ قام الحواريون والرسل بالتبشير . فكانوا كلهم خطباء .

وقد قامت الكنائس على آثارهم . مما أدى إلى نبوغ بعض آباء الكنائس فى فن الخطابة . ولكن سرعان ما تطرق الضعف إلى هذا الفن الخطابى بسبب غزو بعض اللغات الغريبة إلى اللغة اللاتينية التى كان يخطب بها الخطباء . وكذلك وجود الخطباء الذين يتخذون من الخطابة مهنة للتكسب وجمع المال . فنزلت الخطابة عن مكانتها السامية [٥٣].

ومن أشهر خطباء المسيحية : القديس باسيليوس . الذى يحمل فى إحدى خطبه على الأغنياء الذين لا يؤدون ما عليهم نحو الفقراء قائلاً :- ....قولوا لى ما الفائدة من مقاعد العاج . وَأَسِرَّةِ الذهب . وموائد الفضة . حتى تنفقوا فى سبيلها مالاً الفقراء أحق به ؟ . يتوافدون إلى أبوابكم باكين

٥٣ - الخطابة : د/ نقولا فياض ص ٢٠

مسترحمين . فتردونهم بقسوة . ولا تهابون نقمة الجبار ، لا رحمة عندكم فلا تنتظروا رحمة منه . تغلقون دون المسكين أبوابكم وهو يغلق دونكم أبواب الجنة . تمنعون الخبز عن الفقير . فتمنع عنكم الحياة الأبدية . ما تكون آخرة هذا الظلم . وهذه اللصوصية ، وما تريدون من هذا الملك الواسع . والمكاسب الضخمة. فى حين يكفى شبر من الأرض ليضم أشلاءكم الحقيرة . علام هذا الطمع والجشع؟ إلام تحتقرون شرائع الله والناس؟

إنكم كيفما التفتم تتمثل لكم صورة آثامكم.فهنا يتيم يبكى . وهناك أرملة تئن . فقراء اضطهدتموهم . وخدماً أسأتم إليهم وجيران أغضبتموهم ..

الفصل الرابع

الخطابة العربية قبل الإسلام

إن الأحوال العامة التى تسود فى أمة من الأمم ترجع إلى عاملين أساسيين هما:-

- معدن الأمة
- والبيئة التى تعيش فيها .

لذا كان من الضرورى فى بحثنا عن الخطابة فى العرب قبل الإسلام . أن نتعرف على معدن العربى وأصالته. ثم على البيئة التى عاش فيها.لنعرف هل وجدت فيهم الخطابة ، وهل وجد فيهم خطباء . وأهم المجالات التى كانت تهمهم .... الخ

إن الجزيرة العربية بموقعها الجغرافى تعتبر سرة العالم. . لأنها تقع فى وسطه . وتتصل بكل أجزائه وأقاليمه.

ففى شرقها توجد الدولة الفارسية على الخليج العربى . ودجله والفرات . وفى شمالها توجد الدولة

الرومانية في بلاد الشام وفلسطين.وفى غربها توجد مصر والحبشة على البحر الأحمر .

وفى جنوبها توجد الهند وغيرها على الميحط الهندى وخليج عدن ، وقد ساعد فى التغلب على عوائقها من مرتفعات وبحار :- أن العربى كان على خبر كامل بشعابها وطرق مواصلاتها . فكثيراً ما جابها راكباً إبله. فى قوافل التجارة وأسواق العرب . كما ركب العربى البحر إلى الهند والحبشة . ولذلك لم تقف هذه الموانع أمام إرادة العربى إذا أرادالخروج من جزيرته إلى العالم الخارجى [٥٤]

كما أحيطت الجزيرة بحواجز منيعة إذ وجدت المياه فى ثلاث جهات منها: الخليج العربى ودجلة والفرات فى شرقها والبحر الأحمر فى غربها . وخليج عدن والمحيط الهندى فى جنوبها . والجهة الرابعة مرتفعات الجبال فى الشمال!!!

---

[٥٤] - لذلك . لما امتن الله على العرب ببعثه النبى محمد صلى الله عليه وسلم فيهم سهل عليهم تبليغ الدعوة من مكة الى العالم بإرسال الرسل والكتب . واستقبال الوفود . وبعث الجيوش الى كل مكان فى غير أو عناء.

وهى حواجز تحتاج فى عبورها إلى تدريب وتمرس شاق ، وَمَا تَحَمَّلَهُ العربى إلا لحاجته ، أمّا غيره فليس له إلى ذلك حاجة.

وبذلك وقفت هذه الحواجز كَسَدٍّ قوى منيع أمام الجموع الغازية من الفرس إلى الروم . ولم تمكنهم من اختراقها . فعاشت الجزيرة تبعاً لهذه الحواجز . بعيدة عن الخضوع لسيطرة الفرس أو الروم عسكرياً أو عقائديا[٥٥]

وكثيراً ما عجز الفرس والروم عن الوصول إليها فى وسطها . فاكتفوا بالاستيلاء على أطرافها فى الجنوب والشمال . وإرسال الجواسيس إلى مكة كعاملين للشئون التجارية الرومانية .والتجسس على أحوال العرب . وكذلك كان فيها أحباش يعملون من أجل مصالح قومهم التجارية والقومية. [٥٦]

وقد ترتب على منع الغزاة من الوصول إلى سرة الجزيرة العربية آثار هامة ، منها :-

أ- احتفظ العربى بسجيته وفطرته.

[٥٥] حياة محمد: هيكل :ص ٧١ ط مكتبة النهضة المصرية بدون تاريخ
[٥٦] أسواق العرب: سعيد الأفغانى ص ٢٥ ط ٣ دار الفكر بيروت ١٣٩٣ ١٩٧٤ وفجر الإسلام: أحمد أمين ص ١٥

ب- لم تداخله تناقضات الفكر . ولا متاهات الفلسفة والجدل .

جـ- اهتم بقوميته . فأحيا الشعور الجارتجاهها.فى كل أرجاء الجزيرة .وانتهز الفرص لإحيائها وإعلانها.وذلك فى عدة مواقف من أهمها :-

أولاً : يوم قدو م أبرهة الحبشى بجيشه الذى قصد مكة فى أول محاولة عسكرية ضدها .تصدى له فى الطريق منذ خروجه العرب فى البوادى.لأنهم شعروا أنه بتوجهه إلى الكعبة ومكة . موجه ضد مشاعرهم ومناسكهم .

يقول الأزرقى :- إن أبرهه لما خرج بجيشه يريد البيت الحرام . خرج له رجل من أشراف اليمن وملوكهم يقال له – ذو نفر- فدعا قومه ومن أجابه إلى مجاهدة أبرهه وقتاله . لكنهم انهزموا.

وفى منتصف الطريق عند خثعم تصدى له- نفيل بن حبيب الخثعمى وقبيلته,لكنهم انهزموا كذلك [٥٧] . ثم واصل أبرهة مسيرته إلى مكة حيث أهلكه الله بها . فجاءت

---

[٥٧] - اخبار مكة جـ١ ص ١٤١ ط٨ دار الثقافة بمكة المكرمة ١٤١٦ هـ ، ١٩٩٦م

التهنئة لأهل مكة من كل مكان . تحمل أشعاراً وخطباً مطولة، أوردها مؤرخوا السيرة.[٥٨]

وقد وقف العرب من حملة أبرهه هذا الموقف العدائى لمعرفتهم أن مقصد أبرهه هو الاستيلاء على البيت ومكة . والإفادة بما تدره تجارتهم من ربح [٥٩].

ومن هنا كانت المجابهة العربية ضد أبرهه: قومية شاملة لعرب اليمن والبوادى ولأهل مكة.

ثانياً : يوم طرد الأحباش من اليمن وعودة الملك إلى حمير. عمت الفرحة سائر الجزيرة العربية. يقول الأزرقى:-

إن وفود العرب جميعاً خرجت لتهنئة سيف بن ذى يزن. فخرج وفد قريش. ووفد ثقيف . وعجز هوزان . وهم: نصر، و جشم. وسعد بن بكر، ومعهم وفد عدوان، ووفد غطفان ووفد تميم ووفد قبائل قضاعة والأزد [٦٠]. وقد ساعد على نمو هذا الشعور القومى واستمراره. عدة عوامل من أهمها:-

١- شعور العرب بأن الفرس والروم يرقبونهم وينتظرون فرصة يقومون بها ضدهم.

---

[٥٨] - كثير منها فى السيرة النبوية لابن هشام جـ١ صـ، ٥٩.وما بعدها
[٥٩] - السابق جـ١ صـ ١٤٨
[٦٠] السابق ص ١٤٩ .

٢- خَلَطَ العربُ هذا الشعور القومى. بنزعتهم الدينية وتجارتهم وأعمالهم. وأبرزوه فى عمل ملموس يرتبط بمكان معيشتهم. ويدور مع الزمن بانتظام. حيث جعلوا من أشهر السنة. أربعة أشهر حرم يحرم الصراع فيها. وأثناء هذه الأشهر تقام الأسواق حول مكة . فتختلط التجارة .. وهى عملهم – بالحج- وهو عقيدتهم – بالشعر والخطابة – وهما رمز قوميتهم وفخرهم

يقول الأزرقى:- إذا جاء موسم الحج خرج الناس إلى مواسمهم. فيصبحون بعكاظ يوم هلال ذى القعدة. فيقيمون عشرين ليلة. تقوم فيها أسواقهم بعكاظ. والناس يبيعون ويشترون. فإذا مضت العشرون انصرفوا إلى مجنة. فأقاموا بها وأسواقهم قائمة . فإذا رأووا هلال ذى الحجة. انصرفوا إلى ذى المجاز. فأقاموا بها ثمان ليال. وأسواقهم قائمة . ثم يخرجون يوم التروية إلى عرفة آخر أسواقهم."[٦١].

وكان الهدف من إقامة هذه الأسواق فى موسم الحج ، وقرب مكة : هو حضور أكبر عدد من سكان المناطق النائية لكى يزودوهم بالشعور القومى . والنماء الاقتصاد . ويؤكدوا الرابطة بين سائر العرب.

---

[٦١] أخبار مكة صـ١٨٨

وخلال هذه الأسواق كانت تقام المسابقات الأدبية. حيث يتبارى الشعراء والخطباء. المولعين بفصاحة اللسان. وصحة الكلام.

وكانت اللغة العربية غنية بمفرداتها. دقيقة فى الفروق بين ألفاظها ، قادرة على التعبير عن جميع الأحاسيس والمشاعر .

وكان العرب – وما زالوا- يفخرون بقدم لغتهم وكمالها. يولعون بترديد مقاطعها العذبة فى خطبهم الرنانة وشعرهم الجذل ، ونثرهم الرصين . يأخذ بلبهم شعر الشعراء . وخطب الخطباء الذين كانوا يعيدون على أسماعهم مغامرات أبطالهم أو قبائلهم فى الحروب وغيرها.

وقد أدى كل هذا إلى تقوية النزعة القومية. والدينية عند العرب.

وهاتان النزعتان القومية والدينية. أفادتا الدعوة الإسلامية إفادة جليلة بعد الجهر بها . إذ تمكنت من صهر النزعة الدينية عندهم. وتحويلها إلى معبود واحد. كما أعطتهم النزعة القومية روح الغيرة والحماس والاندفاع تبعاً

لمشاعرهم . وبالدعوة تحولت هذه الخصائص العربية إلى مصلحة الإسلام وخدمة المسلمين .

هذه لمحة سريعة لبيئة العرب . وتبين من خلالها :-

أن العربى أَبِيٌّ لا يرضى ضيماً. ولا يسكن إلى مذلة. إذا استولت على رأسه فكرة نفذها دون تردد . جواد كريم. يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة. يرعى حرمة الجوار ويفى بعهده. قال فيه بعض الفرنجة:

إنه نبيل بفطرته. وقد مكنته صحراؤه وضعف السلطان فيها من أن يعيش عيشة فروسية. اعتماده فى الحماية على نفسه وسيفه لا على حكومة تحميه.[٦٢]

هذا هو العربى . وتلك حياته وبيئته. وهى – لعمرى – حافزة إلى الخطابة . مستثيرة البيان الرائع . فالتنازع المستمر . والحروب الدائمة الناشبة بين سكان الصحراء. تستدعى بياناً يثير الحمية . ويقوى العزائم . ويدفع النفوس إلى مشتجر السيوف . وملتقى الحتوف. ولا شىء يقوى روح المحارب أكثر من قول حافز. وعبارات تهز أوتار القلوب فى شتى مجالات الحياة.

---
[٦٢] -الخطابة : أبوزهر ص ٢٢٠

مجالات الخطابة العربية قبل الإسلام:-

يشهد تاريخ الأدب العربى قديماً وحديثاً أن الخطابة تكون فى كل مجالات الحياة فتعدد بتعددها . وتنوع بتنوعها . حسب الزمان والمكان والإنسان والشأن . وبالتالى يختلف المؤرخون قديماً وحديثاً فى عدد أنواع الخطب قلة وكثرة . فمن قلل دمج بعض الأنواع فى بعض. ومن أكثر فصل بعض الأنواع عن البعض الآخر.ولكل وجهة!!!

وخلال بحثنا عن الخطابة العربية قبل الإسلام نقف عند أهم بعض المجالات.ونلمس ما جاء فيها من بعض الخطب. ليتأكد لدينا الدور البارز الذى لعبته الخطابة عند العرب قديماً. وأهميته للخطابة والخطباء المعاصرين.

وقد استخدم العرب الخطابة كسلاح فَعَّال فى كل ما يهمهم من أمور حياتهم . فلما كانوا يعيشون جماعات فيما يسمى بالقبائل.كان لابد من الاحتكاك ببعضهم البعض.فى القبائل المجاورة . فكانت المصاهرة والمتاجرة . وكذلك كانت المنازعات والمشاحنات التى يعقبها الحروب والمطاحنات . وفى مقابل هذا كان هناك حقن الدماء بالمصالحات.ولا يمكن أن يتم هذا إلا إذا تقدم سادات القوم وذووا الرأى و الخبرة

فيهم بما يؤدى إلى التقارب والائتلاف . ويقضى على التنافر والاختلاف . وسلاحهم الوحيد فى هذا هو لسانهم وقوة بيانهم.

فَوُجِدَ من أجل هذا كثير من المجالات التى يؤدى فيها اللسان العربى دوره فى خدمة الزمان والمكان والشأن.

فكانت خطابة الحروب لإشعال نارها. بإثارة الحمية أو العصبية للدفاع عن العرض والشرف . ونصرة المظلوم. أو لإخماد نار الحرب بما هيأه الله للناس من صالح الأقوال ومشهور الحكم والأمثال.

وكانت خطابة الوفود التى نشأت من تجاور القبائل ، فكانت الوفود الرسمية أو غير الرسمية من القبائل الأخرى تأتى إلى رؤساء القبائل المجاورة للتشاور فيما يعود بالصالح للقبيلتين . أو عقد معاهدة للتصالح أو الدفاع ، أو لرفع مظلمة أو تقديم شكاية ....إلخ

فكان من الضرورى أن يكون الرسول من فصحاء القبيلة وبلغائها. ليتمكن من عرض موضوعه بحكمة ولباقة . مدعماً بالحجج والأدلة القاطعة . ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق الخطابة. وهى ما تسمى بخطابة الوفود .

وكان للعرب كما كان لغيرهم ضرورات اجتماعية فى حياتهم . ومشاكل متعددة.ولابد لحل هذه المشاكل من بلغاء يلقون بالحكمة.فيعرفون موضعها . وبالعبارة فيدركون وقتها . حتى ينال كل ذى حق حقه.

فلابد إذاً من خطيب اجتماعى يصيب بكلامه كبد الحقيقة. فيكشف غوامض [٦٣] الأمور.

وكان للعرب أسواق مشهورة يقيمونها فى الأشهر الحرم [٦٤] حتى يأمن مَنْ يقصدها على نفسه وبضاعته . ويستعرضون فيها آدابهم من شعر ونثر.كما يستعرضون تجاراتهم ومنتجاتهم.

فكانت هذه الأسواق مجالاً للخطابة العربية قبل الإسلام التى كانت تتملك العرب إلى حد الإعجاب سواء أكانوا خطباء أم مستمعين .

وفى هذا . يقول فيليب حَتّى :- ....قد لا نجد شعباً يتملكهم الإعجاب بالقول الجميل.يحركه الكلام.كالعرب . وقل

[٦٣] - فن الخطابة : د/عبد الرحيم زلط صـ٣٩-٤٠
[٦٤] راجع صفحة من هذا البحث

أن تجد لغة تستطيع أن تسيطر على عقول أهلها . وتترك فى نفوسهم أثراً لا يقاوم كاللغة العربية :

وإن جماهير المستمعين اليوم فى بغداد ودمشق والقاهرة لتستثيرهم القصيدة الملقاة إلى أبعد حد . رغم ما قد يحيط بها من غموض عليهم. أو الخطبة الفصيحة المرتجلة وإن كانوا لا يفهمون إلا بعضاً منها [٦٥].

كما يقول جورجى زيدان فى الجزء الأول من تاريخ آداب اللغة العربية : .. ويغلب تأثيرها فى أبناء عصور الفروسية . وأصحاب النفوس الأبية.طلاب الاستقلال والحرية. ... ولذلك تشابهت جاهلية العرب.وجاهلية اليونان من هذا الوجه.لأن كليهما أهل شعر وخطابة ، وأهل إباء واستقلال .. العرب قضى عليهم الإقليم بالحرية والحماسة . وهم ذووا نفوس حساسة . مثل سائر أهل الخيال الشعرى.فأصبح للبلاغة وَقْعٌ شديدٌ فى نفوسهم البليغة.تقيهم وتقعدهم بما تثيره فى خواطرهم من النخوة .[٦٦]

ويمكن إجمال المجالات الخطابية للعرب قبل الإسلام فى عدة مجالات منها:-

---

[٦٥] - تاريخ العرب صـ١٠٧ وفن الخطابة :د/عبد الرحيم زاط ص٤١

[٦٦] - الخطابة :أبوزهرة ص٢٢٢

أولاً : خطابة الحروب والحث على القتال.

كثيراً ما كانت تقوم الحروب بين القبائل بعضها البعض، فكان الخطباء يقومون في الناس للحض على إشعال نار الحرب . وفى الواقع قال العرب فى هذا المجال أبلغ كلامهم وأصدق عباراتهم الدالة على قوة شكيمتهم . وإقبالهم على الموت بأبدان قوية . وأنفس أبية . يقودها إلى الوغى بأس وحمية .

ولا غرو أن يكون كل قول خطابى فى هذا المجال . أروع بيانهم وأفصح لهجاتهم ،ومن ذلك ما قاله " هانئ بن قبيصة يحرض قومه على القتال يوم ذى قار :-

- يامعشر بكر : هالك معذور،خير من ناج فرور . إن الحذر لا ينجى من القدر،وإن الصبر من أسباب الظفر . المنية ولا الدنية . استقبال الموت خير من إستدباره. الطعن فى ثغر النحور،أكرم منه فى الأعجاز والظهور.

يا آل بكر : قاتلوا،فما للمنايا من بد.[٦٧])هذه خطبة صغيرة المبنى . كبيرة المعنى ، فهى على إيجازها،تهز المشاعر هزاً

[٦٧] - كتاب الأمالى . لأبى على القالى جـ ١ ص ١٦٩ ط.دار الآفاق الجديدة بيروت بدون تاريخ

وتأخذ بألباب القلوب والعقول. وتدفع بالإنسان إلى الكر والفر من أجل العز والشرف.فإما أن يعيش الإنسان بكرامة . أو يموت بكرامة.والموت بكرامة أفضل من العيش بإهانة.

ثانياً :- خطابة الصلح بين المتخاصمين :-

كثيراً ما كان يعقب حروب العرب التى كانت تقع بينهم . صلح يقوم به وجهاء القبائل التى لم تكن طرفاً فى الخصومة بين المتنازعين . ومن ذلك: ما قاله مرثد الخير فى الإصلاح بين متخاصمين: عن ابن الكلبى عن أبيه قال:-

كان مرثد الخير بن ينكف بن نوف بن معد يكرب بن مضحى قيْلاً. وكان حدبا على عشيرته محبا لصلاحهم . وكان سبيع بن الحارث أخو عَلَس [٦٨] وميثم بن مثوم بن ذى رُعَيْن. تنازعا الشرف حتى تشاحنا. وخيف أن يقع بين حييهما شر. فيتفانى جذماهما [٦٩].

---

[٦٨] اسمه ذو جذن
[٦٩] الجذم: الأصل

فبعث إليهما مَرْثَد فأحضرهما ليصلح بينهما.فقال لهما : إن التخبط[70] وامتطاء الهجاج.[71] واستحقاب اللجاج[72] سيقفكما على شفا هوة في تَوَرُّدِها بوار الأصيلة[73]، وإنقطاع الوسيلة . فتلافيا أمركما قبل انتكاث العهد .[74] وانحلال العقد، وتشتت الألفة. تباين السهمة[75] . وأنتما في فسحة رافهة[76] وقدم واطدة[77] و المودة ثرية [78] ، والبقيا معرضة[79] فقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب.ممن عصى النصيح، وخالف الرشيد ، وأصغى إلى التقاطع.ورأيتم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم.وكيف كان صَيُور أمورهم [80].

---

[70] - هو ركوب الرجل رأسه فى الشر خاصة : قال أبو على القالى: لم أسمع هذه الكلمات من غير مرثد . فأما التخمط بالميم: فهو التكبر، وأنشد يعقوب : وخطيب قوم قدموه أمامهم ثقة به متخمط تياح.

[71] - الهجاج هنا المقصود به : الإ[illegible] على ما فى الرأس ، وقال أبو بكر ; يقال : ركب الرجل هجاجه إذا لج ومحل[illegible] اللسان: ركب فلان هجاج غير مجرى...... ركب رأسه.

[72] الاستحقاب: استفعال من الحقيبة. أو من الحقاب . والحقيبة هى وعاء المتاع والحقاب حزام فيه خيطان ملونان. وهذا مثل إما ان يكون أراد أنه احتزم باللجاج أو جعله في وعائه

[73] - الأصيلة: الأصل

[74] - انقطاعه و نقصه

[75] - القرابة

[76] - ناعمة من الرفاهية

[77] - ثابتة

[78] - متصلة مأخوذة من الثرى وهو التراب الندى .

[79] - والبقية او ما يبقى من الود معرضة اى ممكنة يقال:- أمكنت من غرضها أى من جنبها وناحيتها . أو قد أعرض الله الظبى فارمه. أى قد أمكنك من غرضيه.

[80] - الذى يرجع إليه

فتلافوا القَرْحَةَ قبل تفاقم الثَّأْيِ واستفحال الداء [٨١] وإعواز الدواء. فإنه إذا سفكت الدماء. استحكمت الشحناء. وإذا استحكمت الشحناء. تَقَضَّبَتْ [٨٢] عرى الإبقاء. وشمل البلاء. [٨٣]

فقال سبيع : أيها الملك. إن عداوة بنى العلات . لا تُبْرِئُها الأُسَاةُ [٨٤] ولا تشفيها الرُّقاة. ولا تستقل بها الكفاة. والحسد . الكامن. هو الداء الباطن. وقد علم بنوا أبينا هؤلاء أنا لهم ردْءٌ إذا رَهِبُوا. وغيث إذا أجدبوا. وعضد إذا حاربوا ومفزَعٌ إذا نكبوا. وإنا وإياهم كما قال الأول: -

إذا ماعلَوْا . قالوا أبُونا وأُمُّنا : وليس لهم عالين أمٌّ ولا أبُ .

فقال ميثم : أيها الملك :إن مَنْ نَفِسَ على إبن أبيه الزعامة . [٨٥] وجدبه [٨٦] فى المقامة [٨٧] .

---

[٨١] - استفحال الداء : اشتداده وهو ان يصير مثل الفحل.

[٨٢] - تقضبت: تقطعت

[٨٣] - شمل البلاء: عم

[٨٤] - الاساة: الأطباء. واحدها: اس. قال البعيث:- اذا قاسها الأسى التطاسىّ أدبرت* غثيثتها و ازدادت وهيًا هُزُومها – والغثيثة: ما سال من الجرح

[٨٥] - الرياسة قال لبيد:- تطير عدائد الاشراك شفعا ووترا: والزعامة للغلام

٤- قرف على وزن فعل : أى خليقا أو جديدا ض

[٨٦] - جدبه: عابه و فى حديث عمر رضى الله عنه أنه جدب السمر بعد عتمه: أى عابه.

وإستكثر له قليل الكرامة . كان قَرِفاً بالملامة[88] . ومؤنباً على ترك الإستقامة .

وإنا والله مااعتقد لهم بيد إلا وقد نالهم منا كِفَاؤُهَا . ولانذكر لهم حسنة إلا وقد تطلع منا إليهم جزاؤها. ولا تفيأ لهم علينا ظل نعمة إلا وقد قوبلوا بِشَرْوَاها[89] ونحن بنوا فحل مُقْرِمٌ لم تقعد بنا الأمهات ولا بهم . ولم تنزعنا أعراق السوء ولا إياهم . فَعَلاَمَ مطُّ الخدود[90] وخزر[91] العيون.

والجخيف[92] والتصغر والبأو والتكبر .....إلخ. ألكثرة عدد . أم لفضل جلد . أم لطول معتقد. ؟

وإنا وإياهم كما قال الأول :-

لا[93] ه ابن عمك لا أفضلت فى حسب * عنى ولا أنت ديانى فتخزونى[94]

---

[87] - المقامة : المجلس . قال الأصعمى وانشد بيت مهلل:- نبئت أن النار بعدك أوقدت: واستتب بعدك يا كليب المجلس .

[88] - قرف على وزن فعل : أى خليقاً أو جديراً.

[89] - بمثلها

[90] - المط والمد والمت كلها بمعنى واحد

[91] - النظر إلى أحد العرضين يقال إنه ليتاخازر لى إذا نظر إليه بمؤخر عينه ولم يستقبله بنظرة .وأنشد ابو بكر بن دريد؛ إذا تخزرت وما بى من خزر: ثم كثرت العين من غير عور. ألفيتنى ألوى بعيد المستمر: احمل ما حملت من خير وشر.

[92] - قيل للأصمعى قال ابو عبيد : الجخيف ; التكبر والبأ والتكبر قال : أما البأو فنعم واما الجخيف فلا ويراد به التهدد .

ومقاطع الأمور ثلاثة : حرب مبيدة – أو سلم قريدة – أو مدجاة[95] وَعِـرَةٌ .

فقال الملك لا تُنْشِطوا[96] عقل الشوارد. ولا تلقحوا العُون[97] القواعد .

ولا تؤرثوا[98] نيران الأحقاد ففيها المتلفة المستأصلة والجائحة[99] والأليلة[100] وعفوا بالحلم أبلاد[101] الكلم . وأنيبوا إلى السبيل الأرشد والمنهج الأقصد . فإن الحرب تُقْبِلُ بزبرج[102] الغرور .وتدبر بالويلى والثبور . ثم قال الملك :-

أَلَا هل أتى الأقوامَ بَذْلِي نصيحةً * حَبَوْتُ بها منى سبيعاً وميثماً .

وقلت أعلموا أن التدابر غادرت * عواقبه للذل والقل[103] جُرَّهُمَا

[93] - اراد: لله بن عمك فحذف لام الجر واللام التى بعدها والبيت لذى الأصبع العدوانى

[94] - تقهرنى وتسوسنى

[95] - المدجاد: المساطرة من دجى الليل .

[96] - قال الصمعى : نشطت العقدة اى عقدتها وانشطت العقدة أى حللتها.

[97] - من لقاح الإبل والعون الثيبة وهو مثل يضرب للحرب اذا قامت

[98] - تذكوا

[99] - الاستئصال

[100] - الأليلة: الثكل والأليل : الأنين

[101] - الأبلاد: الأثار

[102] يزبرج: قال الصمعى : هو السحاب الذى تسفره الريح . وقال أبوبكر بن دريد لا يقال زبرج إلا أن تكون فيه حمرة

[103] -الذلة والقلة

فلا تقدحا زَنْدَ العقوق وأبقيا * على العزة القعساء[١٠٤] أن تتهدما

ولا تجنيا حربا تجر عليكما * عواقبها يوما من الشر أسأما

فإن جناة الحرب للحين عُرْضَةٌ * تفوقهم[١٠٥] منها الزعاف المقشما[١٠٦]

حذار فلا تستنبثوها[١٠٧] فإنها : تغادر ذا الأنف الأشم مكشما[١٠٨]

فقالا:- لا أيها الملك . بل نقبل نصحك . ونطيع أمرك ونطفئ النائرة .ونحل الضغائن .ونثوب إلى السلم [١٠٩].

هكذا توصل الخطيب البليغ بلباقته إلى هدفه مقنعاً ومستميلاً الطرفين المتنازعين للإصلاح بعد أن رغبهم فى الصلح . ورهبهم من القطيعة.

---

[١٠٤] - الثابتة

[١٠٥] - تسقيهم القواف والقواف ما بين الحلبتين :كانه يحلب حلبة ثم يسكت ثم يحلب حلبة أخرى

[١٠٦] - المقشم والمقشب واحد . وهو المخلوط.

[١٠٧] - هذا مثل : أى لا تخرجوا نبيثها وهو ما يخرج من البئر إذا حفرت , يريد لا تثيروا الحرب.

[١٠٨] - المكشما : المقطوع

[١٠٩] - الأمالى : لأبى على القالى جـ١ صـ٩٢ وما بعدها

ثالثاً:- خطب المفاخرة والمنافرة :-

كما لعبت الخطابة العربية دوراً بارزاً فى الحث على الشجاعة وعدم الخور .

ودورا آخر فى الصلح والإصلاح بين المتنازعين ..لعبت دوراً ثالثاً فى الفخر بكل مليح والفرار من كل قبيح .لأن تعصب العربى لقبيلته يجعله يفتخر بصفات أبطالها من شدة بطش- وقوة بأس- وثبات فى الهيجاء- وصبر على اللأواء – ووفاء للعهد – ورعاية للجوار – وإكرام للضيف وذلك تارة يكون بشعر قوى وأخرى بكلام خطابى مبين [110] .ومن ذلك ماقاله أعرابى يصف قومه"-(كانوا والله إذا أصطفوا تحت القتام [111] خطرت بينهم السهام .بوفود الحمام [112]. وإذا تصافحوا بالسيوف فغرت [113] المنايا أفواها فرب يوم عارم [114] قد أحسنوا أدبه . وحرب عبوس [115] قد ضاحكتها [116] أسنتهم.

[110] - الخطابة: ابو زهرة صـ ٢١١ ربيع الثانى
[111] - القتام الغبار الأسود . يقال: حتى خفيت الأعلام .
[112] - قضاء الموت وقدره.
[113] -فغرت: فتحت. قال حميد بن ثور :- عجبت لها أنى يكون غناؤها: فصيحا ولم تفغر بمنطقها فما؟
[114] د- يوم عارم: شديد البرد.
[115] الحرب العبوس: الشديدة
[116] - ضاحكتها: أخرجتها- يقال ضحكت الأرض عن النبات . أى أخرجته.

وخَطْب شئُز [١١٧] قد زللوا مناكبه,ويوم عَمَاس [١١٨] قد كشفوا ظلمته ,بالصبر حتى ينجلى . إنما كانوا البحر الذى لا ينكش [١١٩] غِمارُه [١٢٠]. يُنَهْنَه [١٢١] تياره [١٢٢]. وقد تصل المفاخرة إلى حد المنافرة بين شخصيْن يتحدثان فى الأمر,ويشتد فخر كل منهما على صاحبه . فيتحاكمان إلى شخص يشترط فيه : الحكمة والبلاغة وعدالة القول . وأن يكون خطيباً مُفَوّهاً . فيدلى كل من المتفاخريْن على هذا الحكم ما عنده من مفاخرة . ثم يترك له المجال ليفصل بينهما بأحقية أحدهما بالأمر الذى يتفاخران من أجل الوصول إليه . وذلك نظير جُعْل يأُخذه هذا الحَكَمُ ممن نفر عليه صاحبه. وتسمى هذه منافرة.وقد كانت هذه المنافرة كثيرة بين عرب الجاهلية. ومن ذلك منافرة عقلمة بن علاثة. وعامر بن الطفيل . وكانا يتنافران على الرئاسة فى بنى عامر. ويزعم كل منهما بأحقيته لها. وأُصالة نسبة فى هذا الحق . ثم تنافرا على مائة من الإبل. فألقى كل منهما من بليغ بيانه,ما رآه فخراً له بين يدى الحَكَمَ- هرم بن قطبةالفزارى- وملأُ من قومهما . وتروى كتب

---

[١١٧] - الشئز : المقلق. والشأز والشأس: الأُرض الغليظة. قال العجاج : إن ينزلوا بالسهل بعد الشأس. ومنه سمى الرجل شاسا.

[١١٨] - العماس: الشديد.

[١١٩] ١٠ - ينكش: ينزح.

[١٢٠] - الغمار : الماء الكثير

[١٢١] - ينهنه: يكف

[١٢٢] - الأمالى : ابو على القالى جـ١صـ ١٣٩

الأدب هذه المنافرة فتقول:- لَمّا أَسَنّ أبو براء عامر بن مالك ابن جعفر بن ملاعب الأسنة. تنازع فى الرياسة عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر. وعلقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر. فقال علقمة: كانت لِجَدّي الأحوص. وإنما صارت لعمك بسببه.وقد قعد عمك عنها. وأنا أسترجعها . فأنا أولى بها منك.فَشَرِىَ[123] الشرُّ بينهما . وسارا إلى المنافرة.

فقال علقمة: إن شئت نافرتك . فقال عامر: قد شئت: والله إنى لأكرم منك حسباً[124]. وأثبت منك نسباً. وأطول منك قصباً[125].

فقال علقمة:- والله لأنا خير منك ليلاً ونهاراً. فقال عامر: والله لأنا أحب إلى نسائك إن أصبح فيهن منك. أنا أنحر منك للقاح.[126] وخير منك فى الصباح. وأطعم منك فى السنة

---

[123] - استطار

[124] - ما يعد من مفاخر الآباء فى الشرف والكرم ....الخ

[125] - عظام اليدين والرجلين ونحوهما كناية عن طول قامته

[126] الإبل واحدتها لقوح

الشَّيَّاح[١٢٧]. فقال علقمة: أنا خير منك أثراً . وأحدُّ منك بصراً، وأعز منك نفراً. وأشرف منك ذكراً.

فقال عامر:- ليس لبنى الأحوص فضل على بنى مالك فى العدد.وبصرى ناقص. وبصرك صحيح. ولكنى أُنَافِرُكَ: إنى أسمى منك سُمَّة[١٢٨]. وأطول منك قمة . وأحسن منك لِمَّة[١٢٩]. وأجعد منك جمَّة[١٣٠] . وأسرع منك رحمة . وأبعد منك همة.

فقال علقمة:أنت رجل جسيم . وأنا رجل قصيف[١٣١]. وأنت جميل.وأنا قبيح . ولكنى أُنَافِرُكَ بآبائى وأعمامى.

فقال عامر:- آباؤك أعمامى . ولم أكن لأُنَافِرَكَ بهم. ولكنى أُنَافِرُكَ!!!!!!!

أنا خير منك عَقِباً . وأطعم منك جَدِباً.

فقال علقمة:- قد علمت أن لك عقباً . وقد أطعمتَ طيباً. ولكنى أُنَافِرُكَ:إنى خير منك. وأولى بالخيرات منك. فخرجت أمُّ عامر – وكانت تسمع كلامهما.

---

[١٢٧] - القحط

[١٢٨] - السمة : القرابة

[١٢٩] اللمة هى الشعر المجاور لشحمة الأذن

[١٣٠] مجتمع شعر الراس

[١٣١] - نحيف

فقالت: يا عامر نَافِرْهُ. أيكما أولى بالخيرات؟. قال: إني والله لأركب منك في الحماة. وأقتل منك للكُماة[132]. وخير منك للمولى والمولاة

فقال علقمة: والله إني لبر. وإنك لفاجر. وإني لولود. وإنك لعاقر[133] وإني لعفٌ وإنك لعاهر. وإني لوفي. وإنك لغادر تفاخرني ياعامر؟

فقال عامر: والله إني لأنزل منك للقفرة[134]. وأنحر منك للبَكْرة[135]. وأطعم منك للهَبْرة[136] وأطعن منك للثغرة.

فقال علقمة: والله إنك لكليل البصر. نكِدُ النظر. وثّاب على جاراتك بالسَّحَر.

فقال بنو خالد بن جعفر - وكانوا يداً مع بني الأحوص على بني مالك بن جعفر - لن تطيق عامراً. ولكن قل له أنافرك بخيرنا. وأقربنا إلى الخيرات.

---

[132] جمع كمي وهو الشجاع

[133] - لم يولد له ولد

[134] - القفرة والقفر: الخلاء من الأرض

[135] - الفتية من الإبل: عزيزاً قوياً.

[136] - القطعة المجتمعة من اللحم

فقال له . علقمة هذا القول . فقال عامر: عَيْرٌ[137] وتَيْسٌ. وتَيْسٌ وعَنْزٌ.

- فذَهَبَتْ مثلاً- نعم علىَّ مائة من الإبل إلى مائة من الإبل يُعْطاها الحكم.

- أيُّنا نفَّرَ عليه صاحبه أخرجها. ففعلوا ذلك.

- ووضعوا بها رهنا من أبنائهم على يدى رجل يقال له – خزيمة بن عمرو بن الوحيد. فسمى الضمين............

فقال الحكم -هَرِم بن قطبة بن سنان الفزارى[138] لعمرى لأحكمن بينكما ، ثم لأفصلن . فأعطيانى موثقاً

---

[137] - العير : الحمار وغلب على الوحش وهو أقوى من التيس. أى عنزاً فاستيتس . اى صار تيساً . يضرب للذليل الضعيف يصير عزيزا قويا.

[138] - هو أحد حكام العرب المشهورين . وهو غير هرم بن سنان بن ابى حارثة المزنى. نظر إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ملتفا فى بتّ فى ناحية المسجد ورأى دمامته وقلته. وعرف تقديم العرب له فى الحكم والعلم فاحب أن يكشفه ويسبُر ما عنده . فقال : أرأيت لو تنافرا اليك اليوم . أيهما كنت تنفر ؟ يعنى علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل . فقال: ياامير المؤمنين لو قلت فيهما كلمة لأعدتها جذعة، فقال: عمر رضى الله عنه : لهذا العقل تحاكمت العرب اليك:-
كما فسر ذلك لبيد بن ربيعة وضرب به المثل حيث قال فى الحكم بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثه يا هرم ين الأكرمين منصبا* انك قد اوتيت حكما معجبا * فطبّق المفصل واغنم طيبا
يعنى : احكم بين عامر وعلقمة بكلمة فصل . وبامر قاطع فتفصل بها بين الحق والباطل . كما يفصل الجزار الخادلة مفصل العظمين . وقال شاعر اخر فى هرم: قضى هرم يوم المريرة بينهم * قضاء امرىء بالولية عالم. قضى ثم ولى الحكم من كان أهله * وليس ذنانى الريش مثل القوادم............ ويقصد بالأولية : مفاخر الاباء . وذنابى الريش: ريشات أربع فى جناحة بعد الخوافى . والخوافى : ريشات اربع بعد

أطمئن اليه أن ترضيا بما اقول وتسلما لما قضيت بينكما. وامرهم بالانصراف ووعدهما ذلك اليوم من قابل ....

وأصبح هرم فجلس مجلسه. وأقبل الناس . وأقبل علقمة وعامر حتى جلسا . فقام هرم فقال :- يابنى جعفر . قد تحاكمتما وأنتما كركبتى لبعيد الأدرم [1] تقعان إلى الارض معاً. وليس فيكما أحد إلا وفيه ماليس صاحبة وكلاكما سيد كريم .... ولم يفضل أحد منهما على صاحبه. وكره أن يفعل . وهما ابنا عم . فيجلب بذلك عدواة . ويوقع بين الحيين شراً [2].

رابعاً: خطب الوعظ والارشاد :

وجد كثير من الحكماء والمصلحين فى العصر الجاهلى يتصدون لكل انحراف فكرى أو اجتماعى. أو فساد خلقى. أو انحراف عقدى ناشىء عن الجهل أو الأوهام. ويدعون الى أعمال الخير والبر.

---

[1]- الأدرم هو ماكسى اللحم عظمة حتى لا يظهر العظم

[2]- الأغانى جـ ١٥صـــــ ٥٠-٥٥ وصبح الاعشى جـ١ صـــــــ٣٨٢ وجمهرة خطب العرب جـ١ صـــــ٤١-٤٥

وكانت نصائح المصلحين فى الترغيب أو الترهيب تؤثر فى مستمعيها . ومن أشهر خطباء الجاهلية فى هذا المجال: كعب بن لؤى. والمأمون الحارثى وقس بن ساعدة.

خطبة كعب لؤى.

كعب بن لؤى هو الجد السابع للنبى صلى الله عليه وسلم. وقد كان يخطب العرب فى الشئون المختلفة ويحث كنانة على البر وأعمال الخير . وكان مهيباً مسموع الكلمة . وهو أول من قال – جملة – أما بعد. وأول من سمى الجمعة جمعة. وأول وأول من جمع فى الجاهلية بمكة . ولما مات أكبروا موته. وَأَرَّخُوا به . وظلوا يتخذونه تاريخاً حتى عام الفيل فَأَرَّخُوا به . حتى كانت الهجرة النبوية الشريفة . فاتخذها عمر ابن الخطاب رضى الله عنه مبدأً لتاريخ المسلمين .[140]

روى الحافظ ابن كثير عن أبى سلمة قال:- كان كعب لؤى يجمع قومه يوم الجمعة ..وكانت قريش تسميه يوم العروبة . فيخطبهم . فيقول : أما بعد : فاسمعوا وتعلموا . وافهموا واعلموا. ليل ساج ، ونهار ضاح [142]

[140] - البيان والتبين جـ١ ص ٣٥١

[142] - ساج: مظلم . وضاح بالحاء يعنى نير. من الضحى . وضاج بالجيم اسم فاعل من ضج اى نهار ملىء بالعمل والكفاح والحركة او الضجيج.

الأرض مهاد والسماء بناء . والجبال أوتاد والنجوم أعلام، والأولون كالآخرين. والأنثى والذكر والروح وما يهيج إلى بلى [١٤٣]. فَصِلُوا أرحامكم واحفظوا أصهاركم. وَثَمِّرُوا أموالكم [١٤٤] . فهل رأيتم من هلك رجع؟ أو ميتاً نشر ؟ الدار أمامكم [١٤٥]. والظن غير ما تقولون . حرمكم زينوه وعظموه. وتمسكوا به . فسيأتى له نبأ عظيم . وسيخرج منه نبى كريم.

ثم يقول :-

نهار وليل كل يوم بحادث سواء علينا ليلها ونهارها

يؤوبان بالأحداث حتى تأوبا وبالنعم الضافى علينا ستورها

على غفلة يأتى النبى محمد فيخبر أخباراً صدوق خبيرها

ثم يقول:

---

[١٤٣] - فناء

[١٤٤] - استثمروها

[١٤٥] - يعنى بالدار : الكعبة أو الدار الآخرة فيحث على العمل من أجلها

والله لو كنت فيها ذا سمع وبصر. ويد ورِجْلٍ لَتَنَصَّبْتُ فيها تَنَصُّبَ الجَمَلِ[146]،

ولأرقلت[147] بها إرقال العَجِلِ. وأنشد:

يـاليتنى شـاهد نجـواء دعوتـه...... حين العشيرة تبغى الحق خذلانا

قال أبو سلمة: وكان بين موت كعب بن لؤى. ومبعث الرسول صلى الله عليه وسلم ٥٦٠ خمسمائه وستون عاماً[148].

خطبة المأمون الحارثى.[149]

قعد المأمون الحارثى فى نادى قومه فنظر إلى السماء والنجوم.ثم أفكر طويلاً . ثم قال: أرعونى أسماعكم. وأصغوا إلىّ قلوبكم. يبلغ الوعظ [illegible]كم حيث أريد. طمح[150] بالأهواء

---

[146] - لتحملت فيها ما يتحمله الجمل من المصاعب و المشاق

[147] - ولأسرعت

[148] - البداية والنهاية لابن كثير جـ٢ ص٣٤٤

[149] - يروى المأمور بالراء٢- ارتفع وعلا

[150] - ارتفع وعلا

الأُشر[151]. وران[152] علـى القلـوب الكـدر. وطخطـخ[153] الجهـل النظر.

إن فيمـا نـرى لمعتبـراً لمـن اعتبـر: أُرض موضـوعة . وسـماء مرفوعـة. وشـمس تطلـع وتغـرب. ونجـوم تسـرى فتغرب[154] . وقمر تطلعه النحور[155] وتَمحَقه أدبـار[156] الشـهور. وعاجز مُثر[157]. وحُوَّلٌ مُكْدٍ[158]. وشاب مختضر[159] ويَفِينٌ[160] قد غَبَرَ[161]

وراحلون لا يؤوبون[162]. وموقوفون لا يُفَرَّطون[163]. ومطر يُرْسَل بقدر[164] . فيحـى البشـر. ويـورق الشـجر. ويطلـع الثمر. وينبت الزَّهَر. وماء يتفجر من الصخر الأير[165] فيصدع

---

151 - المرح والبطر
152 - غلب
153 - أظلم
154 - تبعد
155 - أوائل الشهور
156 - أواخر الشهور
157 - كثير الثروة
158 - الحول : شديد الاحتيال . والمكد : قليل لخير مأخوذ من أكدى.
159 - الذى يموت حدثاً . مأخوذ من الحضوة. كأنه حصد اخضر
160 - اليفن الشيخ الكبير الفانى
161 - مكث
162 - لا يرجعون
163 - لا يقدمون .
163 - المرح والبطر
164 بقسمة مقدورة
165 - انحجر **الأيبر** على مثال **الأصم** : الصلب

المدر عن أفنان الخضر. فيحى الأنام . ويشبع السوام . وينمى الأنعام . إن فى ذلك لأوضح الدلائل على المدبّر المقدر، البارى المصور، يأيها العقول النافرة . والقلوب النائرة[166] . أنّى تؤفكون[167] ؟.

وعن أى سبيل تعمهون[168] ؟ وفى أى حيرة تهيمون ؟ وإلى أى غاية توفضون[169] . لو كشفت الأغطية عن القلوب، وتجلت الغشاوة عن العيون . لصرّح الشك عن اليقين . وأفاق عن نشوة الجهالة من استولت عليه الضلالة[170] . فهذه خطبة تحوى كثيراً من الوصايا والمواعظ التى تصلح الإنسان فى عاجله وآجله . ابتدأها المأمون بتفكر فى كون الله تعالى بسمائه وأرضه ليستحضر ذاكرته.ويصفى قريحته . فيجود لسانه بسحر القول. وموفور الحكمة.ثم يستحضر أسماع المستمعين لتنصت . وعقولهم لتقتنع.وقلوبهم لتستمال . فيصل بوعظه إلى حيثما يريد منهم .

---

[166] - النائرة : النافرة من نارت نورا بفتح النون ونوارا بفتحها وكسرها: نفرت.

[167] - تصرفون أو تختلقون من الاختلاق

[168] - تتحيرون

[169] - تسرعون

[170] - نشوة الجهالة: سكر الطيش والحمق ـ الأمالى: حـ١ صـ ٢٧٣ ـ

ثم يبين ما اعتبر هو بها. من آيات كونية. فى السماء والأرض و مافيهما . وما بينهما . ومن آيات إنسانية تبين قدرة الله تعالى فى تقلبات الإنسان بين الشباب والمشيب.

ثم ينادى العقول الشاردة . والقلوب الصلبة المغلقة لتفيق من غفوتها . وتعود من ضلالتها إلى رشدها.

خطبة قس بن ساعدة الأيادى:

هو أشهر خطباء العرب قبل الإسلام على الإطلاق . وكان من الحنفاء الذين يدينون بالتوحيد. ويؤمنون بالبعث بعد الموت . ويدعو إلى نبذ عبادة الأوثان. وترجع شهرة قس بن ساعدة. إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع إحدى خطبه بسوق عكاظ. وقد رواها النبى صلى الله عليه وسلم لقريش والعرب.

وعجب صلى الله عليه وسلم من حسنه . وأظهر من تصويبه. وهذا إسناد تعجز عنه الأمانى . وتنقطع دونه الآمال. وإنما وفق الله ذلك الكلام لقس بن ساعدة لاحتجاجه للتوحيد .

ولإظهاره معنى الإخلاص . وإيمانه بالبعث . ولذلك كان خطيب العرب قبل الإسلام قاطبة[١٧١]..

ولما قدم وفد إياد على رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الوفود.سألهم عن قس فقالوا: مات . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : كأنى أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أورق[١٧٢]

وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة . ما أجدنى أحفظه. فقال رجل من الوفد:أنا أحفظه. فقال النبى صلى الله عليه وسلم : كيف سمعته يقول ؟. قال سمعته يقول:- أيها الناس إسمعوا وعوا,من عاش مات.ومن مات فات[١٧٣] . وكل ما هو آتٍ آتٍ[١٧٤]. ليل داج[١٧٥]. ونهار ساج[١٧٦]. وسماء ذات أبراج. ونجوم تزهر[١٧٧]. وبحار تزخر[١٧٨]. وجبال مرساة. وأرض مدحاة. وأنهار مجراة. إن فى السماء لخبراً. وإن فى الأرض لعبراً. ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون. أرَضُوا فأقاموا. أم تُرِكوا

---

[١٧١] البيان والتبيين جـ١ صـ٢٥

[١٧٢] - أبيض فيه سمرة . أى رمادى اللون

[١٧٣] لايعود

[١٧٤] - كل ما قدر سيقع

[١٧٥] - مظلم

[١٧٦] - مضىء

[١٧٧] - تضىء

[١٧٨] - مليئة بالماء تطمى به وترتفع

فناموا؟ يقسم قس بالله قسماً . لا إثم فيه . إن لله ديناً هو أرضى له وأفضل من دينكم الذى أنتم عليه . إنكم لتأتون من الأمر منكراً. وَيُرْوَى أن قساً أنشأ بعد ذلك يقول :-

في الذاهبين الأوليـــ ـــن من القرون لنا بصائر.

لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر

ورأيت قومى نحوها يمضى الأصاغر والأكابر.

لا يرجع الماضى ولا يبقى من الباقين غابر.

أيقنت أنى لا محا لة حيث صار القوم صائر.

وقد جاءت هذه الخطبة بروايات متعددة تزيد وتنقص[179] وسبب هذا قد يكون طول العهد..وعدم الاهتمام بالتدوين . والاعتماد على المحفوظ فى الذاكرة.

ويلاحظ أن هذه الخطب الثلاث لكعب بن لؤى . والمأمون الحارثى،وقس بن ساعدة.كلها تدور حول الوعظ والنصح. أو الترغيب والترهيب.كما أن فيها ما يدل على البشارة ببعثة النبى صلى الله عليه وسلم . ويندد بما لا يتناسب مع الفطرة السليمة من عادات ومعتقدات.

---

[179] - صبح الأعشى جـ١ص٢١٢.والبيان والتبيين جـ١ ص٣٠٨

خامساً :- خطب الزواج أو الإملاك:

حرص العرب فى الجاهلية على إقامة الأسر - شأنهم شأن غيرهم من المجتمعات البشرية – عن طريق الزواج بالطريقة المشهورة بينهم حسب عاداتهم وتقاليدهم.

وكان هذا الزواج يتم فى محفل من الناس يتقدم أهل الزوج وفيهم أشرافهم إلى أهل الزوجة . ثم يتحدث أشرفهم مكانة وأفصحهم لهجة وأعذبهم منطقاً معدداً مآثر الزوج وحسبه ونسبه .... الخ . ثم يجيبه خطيب من أهل الزوجة بمثل ما قال فى أسلوب خطابى . يسمى خطبة الزواج أو الإملاك.

ويلاحظ أن هذا النوع من الخطب يُلْقَى من جلوس . وهذه سنة متبعة عند الأمم قديماً وحديثاً . ولذا يقول الهيثم بن عدى بن حاتم الطائى : لم تكن الخطباء تخطب قعوداً إلا فى خطبة النكاح[١٨٠] وذلك:

١- ليقترب وجه الخطيب ونظره من وجوه الجمهور.

---

[١٨٠] - البيان والتبيين جـ١ص ١١٨

٢- ولأن الخطيب فى جلوسه يكون الجمهور كالنظراء والأكفاء له . وإذا علا على المنبر أو غيره .يكون الجمهور كالسوقة أو الرعية له.

٣- ولأن هذا النوع من الخطب أقرب إلى الدرس أو المحاضرة أو الوصية . أو الحديث. وليس فيه ما يدعو إلى حرارة العاطفة وجهارة الصوت.

٤- ولأن المراد من هذه الخطب هو الإخبار بالزواج وتزكيته.وليس المراد هو الإثارة أو الاستمالة .

٥- ولأن الجمهور فى هذه الخطب - غالبا - ما يكون قليل العدد

ولذا لما سئل عبد الله بن المقفع عن قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه :- ما يتصعدنى[181] كلام كما تتصعدنى خطبة النكاح . قال : ما أعرفه إلا أن يكون أراد قرب الوجوه من الوجوه . ونظر الحداق من قرب فى أجواف الحداق. ولأنه إذ كان جالسا معهم كانوا كأنهم نظراء وأكفاء . فإذا علا المنبر كانوا سوقة و رعية.

---

[181] - يتصعدنى: يشق علىّ

وقد ذهب ذاهبون إلى تأويل قول عمر . يرجع إلى أن الخطيب لا يجد بداً من تزكية الخاطب . فلعله كره أن يمدحه بما ليس فيه . فيكون قد قال زوراً وغرَّ القوم من صاحبه. ولعمرى : إن هذا التأويل ليجوز إذا كان الخطيب موقوفاً على الخطابة . فأما عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وأشباهه من الأئمة الراشدين فلم يكونوا ليتكلفوا ذلك إلا فيمن يستحق المدح.[182] ومن أمثلة خطب الزواج أو الإملاك للعرب قبل الإسلام:-

تزويج النبي صلى الله عليه وسلم من خديجة

خطبة أبى طالب فى بنت خويلد رضى الله عنها

لما ذهب النبى صلى الله عليه وسلم مع أعمامه لخطبة السيدة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها خطب أبو طالب خطبة الإملاك قائلاً:- الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم.. وزرع إسماعيل . وضئضىء معد [183] وعنصر مضر [184] وجعلنا حضنة بيته[185].

---

[182] البيان والتبيين جـ١ صـ١١٧
[183] - معدنه
[184] - أصله
[185] - المتكلفين بشأنه

وسُوّاس حرمه[١٨٦] . وجعله لنا بيتاً محجوجاً[١٨٧] . وحرماً آمناً . وجعلنا حكام الناس . ثم إن ابن أخى هذا محمد ابن عبد الله . لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً. وإن كان فى المال قلَّ. فإن المال ظل زائل. وأمر حائل. وعارية مسترجعة . وهو – والله – بعد هذا له نبأ عظيم. وخطر جليل . وقد خطب إليكم رغبة فى كريمتكم خديجة. وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله اثنتى عشرة أوقية ونشاً[١٨٨]

خطبة ورقة بن نوفل:

لما انتهى أبو طالب من خطبته . خطب ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة رضى الله عنها فقال: الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرتَ. وفضلنا على ما عددتَ . فنحن سادةُ العرب وقادتَها . وأنتم أهل ذلك كله. لا تنكر العشيرة فضلكم . ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم. ورغبتنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم. فاشهدوا عَلَيَّ معاشر قريش . إنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله . وذكر المهر..

---

[١٨٦] - القائمين بخدمته

[١٨٧] - محج إليه . و فى رواية مقل أى قليل المال

[١٨٨] - النش عشرون درهما أى نصف أوقية. وهى أربعون درهما وكله خمسمائة درهم شرعى

فقال أبو طالب : قد أحببت أن يشركك عمها . فقال عمها : إشهدوا عَلَيّ معاشر قريش إنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد[189].

وكانت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضى الله عنها أول إمرأة تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت رضى الله عنها وأرضاها. ورزق منها بكل أبنائه إلا إبراهيم كان من مارية القبطية.

سادساً:خطب الرثاء

لما كان الإنسان يتميز برقة الحس.ورهافة العاطفة . يندفع إلى الكلام دفعاً.تحت تأثير المواقف المملوءة بالآمال أو الآلام.

فكلاهما ميدان فسيح للقول البليغ .

وعند موت إنسان عزيز على النفس.أو حبيب إليها . ينطلق اللسان ببيان محامدة . وألم اللوعة فى فقده .ومرارتها على النفس .

---

[189] السيرة الحلبية جـ١ صـ٢٢٦-٢٢٧

وقد يجئ العزاء بالسلوان . وتحقير الدنيا وآمالها وآلامها، وتعظيم ما عند الله من نعيم مقيم . أو عذاب أليم. ومن الخطب فى هذا المجال:-

خطبة أكثم بن صيفى . يعزى عمرو بن هند فى أخيه

إن أهل هذه الدار سَفْرٌ لا يحلون عقد الرحال إلا فى غيرها. وقد أتاك ما ليس بمردود عنك . وارتحل عنك ما ليس براجع إليك . وأقام معك من سيظعن عنك ويدعك.

واعلم أن الدنيا ثلاثة أيام :

فَأَمْسِ عظة وشاهد عدل ،فجعك بنفسه. وأبقى لك وعليك حكمته،واليوم غنيمة وصديق أتاك ولم تأته. طالت عليك غيبته ،وستسرع عنك رحلته.

وغدٍ لا تدرى مَنْ أَهلُهُ وسيأتيك إن وجدك . فما أحسن الشكر للمنعم والتسليم للقادر . وقد مضت لنا أصول نحن فروعها . فما بقاء الفروع بعد أصولها. واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها. وخير من الخير معطيه،وشر من الشر فاعله.[١٩٠]

[١٩٠] - جمهرة خطب العرب جـ١ صـ٢٧

سابعاً : خطب الوفود :- تبادل المصالح والمنافع بين الناس أفراداً وجماعات تتطلب السفارات والوفود التى تتحدث بألسنة أقوامها . وقد دأب العرب على أن يكون لهم لسان فصيح من بعض أبنائهم الذين اشتهروا بالبلاغة. وحسن البيان يرسلونهم فى توضيح أمورهم . وقضاء حوائجهم عند غيرهم.

وقد كان هذا البليغ يتقدم إلى ولى الأمز أو المسئول عن القبيلة بالقول الفصيح والعبارات المؤثرة موصياً أو راجياً مرغباً أو مرهباً. ومن أمثلة هذه الخطب:-

خطبة أكثم بن صيفى أمام كسرى.

قام أكثم بن صيفى بين نفر من قومه بين يدى كسرى فقال :-

إن أفضل الأشياء أعاليها . وأعلى الرجال ملوكها . وأفضل الملوك أعمها نفعاً . وخير الأزمنة أخصبها. وأفضل الخطباء أصدقها.

الصدق منجاة والكذب مهواة والشر لجاجة . والحزم مركب صعب والعجز مركب وطىء . آفة الرأى الهوى . والعجز

مفتاح الفقر. خير الأمور الصبر. سوء الظن ورطة[١٩١] وحسن الظن عصمة[١٩٢] إصلاح فساد الرعية. خير من إصلاح فساد الراعى. ومن فسدت بطانته كان كالغاص بالماء. شر البلاد بلاد لا أمير بها. وشر الملوك من خافه البرىء.

المرء يعجز لا المحالة[١٩٣]. أفضل الأولاد البررة. خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة. أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته. يكفيك من الزاد ما بلغك المحل[١٩٤]. حسبك من شرّ سماعه. الصمت حُكْم[١٩٥]. وقليل فاعله. والبلاغة الإيجاز. من شدَّد نَفَّر. ومن تراخى تألف.

فتعجب كسرى من أكثم ثم قال: وَيْحَكَ يا أكثم ما أحكمك. وأوثق كلامك!!

---

[١٩١] - الورطة: المراد بها هنا كل أمر يتعسر النجاة منه

[١٩٢] - العصمة: هنا هى حفظ ووقاية أو يمنع من الوقوع فى المتوهم منه. المعجم الوسيط جـ٢ صـ٦٠٥، ١٠٢٥

[١٩٣] - الحيلة أو المحاولة؛ ولعل صحة النص – المرء يعجز لا محالة – إشارة إلى ضعف الإنسان مهما كان قوياً.

[١٩٤] - الموطن. وهذه إشارة إلى القناعة.

[١٩٥] - حكمة- وآتيناه الحكم صبيا- أى الحكمة ،

قال أكثم:- الصدق ينبىء عنك لا الوعيد. قال كسرى: لولم يكن للعرب غيرك لكفى. قال أكثم: رب قول أنفذ من صول.[١٩٦]

وهذه الخطبة كما ترى- مليئة بالحكم والمواعظ التى تقود الحاكم إلى السياسة الرشيدة فى رعيته.

ثامناً:- الوصايا:- كثير من العظماء والبلغاء أو الحكماء فى أقوامهم. وعندما يحس هذا أو ذاك بدنو أجله . يفيض عليهم من حنكته وحكمته ما يعتبره زاداً لصالحهم فى عاجل أمرهم وآجله . فيجمع قومه وعشيرته ويلقى إليهم بما يكون كعهد بينه وبينهم يجب عليهم أن يحفظوه ويتعهدوه ويتوارثوه عبر أجيالهم.ومن هذه الخطب:-

وصية عامر بن الظرب العَدْوَانى لقومه

كان عامر بن الظرب العَدْوَانى سيد قومه . فلما كبر وخشى عليه قومه أن يموت ، اجتمعوا إليه .. وقالوا: إنك سيدنا وقائلنا وشريفنا. فاجعل لنا شريفاً وسيداً وقائلاً بعدك. فقال:

يا معشر عَدْوَان: كلفتمونى بغياً . إن كنتم شرفتمونى . فإنى أريتكم ذلك من نفسى . فَأَنَّى لكم مِثْلِى؟! افهموا ما

[١٩٦] - جمهرة خطب العرب ج١ ص٥٦

أقول لكم: إنه من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له. وكان الباطل أولى به. وإن الحق لم يزل ينفر من الباطل. ولم يزل الباطل ينفر من الحق.

يا معشر عَدْوَان: لا تشمتوا بالذلة. ولا تفرحوا بالعزة. فبكل عيش يعيش الفقير مع الغنى. ومن يَرَ يوماً يُرَ به[197] وأعدوا لكل امرئ جوابه. إن مع السفاهة الندامة. والعقوبة نكال وفيها ذمامه[198]. ولليد العليا العاقبة[199]. والقود[200] راحة. لا لك ولا عليك. وإذا شئت وجدت مثلك. إن عليك كما أن لك. وللكثرة الرعب. وللصبر الغلبة. ومن طلب شيئاً وجده. وإن لم يجده يوشك أن يقع قريباً منه.[201]

= وكذلك وصية أكثم بن صيفى لقومه قائلاً: - أقلّوا الخلاف على أمرائكم. واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل. والمرء يعجز لا محالة. ياقوم تثبتوا. فإن أحزم الفريقين الرّكين[202]. ورب عَجَلة تهب ريثاً[203]. واتزروا للحرب[204].

[197] - أى من رأى يوماً على عدوة. رأى مثله على نفسه.
[198] - الذمامة بفتح الذال وكسرها من الذمة والعهد والكفالة والحق والحرمة
[199] - اليد العليا : المعطية
[200] - القود: القصاص
[201] - جمهرة خطب العرب جا ص ١٢٣
[202] - الركين: الرزين
[203] - الريث: البطء والتأنى
[204] - استعدوا لها بالقوة

وادرعـوا الليـل[205] .فإنــه أخفــى للويـل. ولا جماعــة لمــن اختلف[206] .

فهذه خطب تشتمل على وصايا تفيد القوم أو العشيرة فى أمورهم عاجلاً وآجلاً. وصادرة عن حكيم مجرب . بأسلوب غاية فى البلاغة والفصاحة .

تاسعاً: خطب المدح أو الهجاء : يمر العرب- وغيرهم- بكثير من المناسبات؛الأفراح أو الأتراح. التى يتبادلون فيها التهانى . أو المواساة التى تجود بهاقرائحهم . وتنطق بها ألسنتهم بهجة ومدحاً وثناءً.أو تعزية وسلواناً. ومن هذه الخطب

خطبة عبد المطلب بن هاشم جد النبى صلى الله عليه وسلم أمام سيف بن ذى يزن

يقول عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : لما ظفر سيف بن ذى يزن بالحبشة . وذلك بعد مولد النبى صلى الله عليه وسلم بسنتين أتاه وفود العرب وأشرافها وشعرائها لتهنئته و مدحه. وتذكر ما كان من بلائه وطلبه بثأر قومه.

---

[205] - البسوا الدروع أو الستر

[206] - جمهرة خطب العرب جـ1 صـ135

فأتاه وفد قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم.......... فى ناس من وجوه قريش من اهل مكة فأتوه بصنعاء وهو فى قصر له يقال له غمدان.......... فاستأذنوا عليه فأذن لهم .... فدنا عبد المطلب فاستأذن فى الكلام. فقال له سيف بن ذى يزن إن كنت ممن يتكلم بين يدى الملوك فقد أذنا لك فقال له عبد المطلب :-

إن الله عز وجل قد أحلك أيها الملك محلاً رفيعاً صعباً. منيعا شامخاً باذخاً . أنبتك منبتاً طابت أورمته[٣] وعزت جرثومته[٤] وثبت اصله وبسق فرعه. فى اكرم معدن واطيب موطن. وأنت أبيت اللعن رأس العرب [٥] . وربيعها الذى تخصب به . وانت أيها الملك رأس العرب الذى تنقاد له . وعمودها الذى عليه العماد . ومعقلها[٦] الذى تلجأ إليه العباد . سلفك خير سلف وأنت لنا منهم خير خلف فلن يخمد ذكر من أنت سلفه ولن يهلك من انت خلفه.

أيها الملك : نحن أهل حرم الله وسدنه بيته. أشخصنا[٧] إليك الذى أبهجنا لكشفك الكرب الذى فدحنا[٨]. فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة[٩].

عاشراً:- خطب الكهانة.

الكاهن هو كل كل من يتعاطى علماً دقيقاً . ومن العرب من كان يسمى المنجم والطبيب كاهنا والكهانة الإخبار بالغيب. ويرى بعض الناس

---

[٣] - اورمته: اصله
[٤] - جرثومته : اصله ايضا
[٥] اى أبيت اللعنة للعرب حكاما او محكومين
[٦] معقلها: ملجأها
[٧] - أشخصنا: أخرجنا
[٨] اثقلنا
[٩] رزأة : اصاب اصاب منه شيئا . اى احدا والذين للعطاء . راجع جمهرة خطب العرب جـ ١ صـ٧٦ واخبار مكة جـ١ صـ١٥٠

أن التكهن سبب نفسانى . وأن النفوس الصافية تقف على ما استتر فى النفوس الأخرى.

ويرى كثيرون أن الكهانة تكون عن طريق شيطان يكون مع الكاهن يخبرة بما غاب عنه . وأن الشياطين كانت تسترق السمع وتلقيه على السنة الكهان .... وقد أخبر القرآن الكريم عن هذا على سبيل الحكاية عن الجن:- "وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً،

وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصدا" .[٢١٤]

ولهؤلاء الكهان أسلوب فى مخاطبة غيرهم . حيث إنهم يتكلفون فى تنميق كلامهم على طريقة واحدة فى جمل طالت أو قصرت. بفواصل مقفاة غير موزونة.

وقد اشتهر كثير من الكهان بين العرب قبل الإسلام من الرجال والنساء ومن أشهر الكهان: سطيح الذئبى[٢١٥] .

رأى ربيعة بن نصر اللخمى ملك اليمن . رؤيا هَالَتْهُ. فلم يدع كاهناً ولا ساحراً[٢١٦] . ولا عائفاً[٢١٧] ولا منجماً[٢١٨] . من أهل مملكته إلا جَمَعَهُ إليه. فقال لهم:-

---

[٢١٤] - سورة الجن آية ٨-٩

[٢١٥] اسمه: ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدى بن مازن غسان . وكان يقال له :- الذئبى نسبة إلى ذئب بن عدي . وكان من المعمريين عاش ثلاثمائة سنة . وقيل سبعمائة . وزعموا أنه لم يكن له رأس ولا عنق. وأن وجهه كان فى صدره وأنه كان جسدا ملقى لا جوراح له . وكان لا يقدر على الجلوس إلا إذا أغضب. فإنه ينتفخ فيجلس........... وإذا أريد ليخبر عن المغيبات يحرك كما يحرك سقاء اللبن فينتفخ ويمتلىء ويعلوه النفس.
فيسأل فيخبر عما سئل عنه – جمهرة خطب العرب جـ١صـ٩١.

[٢١٦] - من عنده القدرة على التموية والخداع . يقلب الأشياء على غير حقيقتها.

[٢١٧] - العائف هو من يقوم بالعيافة وهى : الاستدلال بقوة النفس والحرص على ما غاب عنهم من الحوادث بواسطة حركات الحيوانات واصواتها وسائر أحوالها- أصالة الحضارة العربية : وناجى معروف صـ١١٩ ط٣ دار الثقافة بيروت ١٩٧٥م

[٢١٨] - المنجم هو من يقوم بالتنجيم: وهو مراقبة النجوم بحسب أوقاتها وسيرها . وادعى معرفة الأنباء بمطالع النجوم – المعجم الوسيطص-٩٠٤

إنى قد رأيت رؤيا هالتنى ، وفظعت[٢١٩] بها . فأخبرونى بها وبتأويلها.

قالوا له :- أقصصها علينا نخبرك بتأويلها.

قال:- إنى إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها . فإنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها. فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا . فليبعث إلى سطيح. وشقّ[٢٢٠] . فإنه ليس أحد أعلم منهما فيها . يخبرانه بما سأل عنه.فبعث إليهما فقدم عليه سطيح قبل شق.

فقال له :- - الملك – إنى قد رأيت رؤيا هالتنى وفَظِعْتُ بها . فأخبرنى بها . فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها . قال : أفعل!!.

رَأيْتَ حُمَمَه[٢٢١] . خرجت من ظلمه[٢٢٢] فوقعت بأرضْ تهمه[٢٢٣] . فأكلت منها كل ذات جمجمه.[٢٢٤] فقال الملك:- ما أخطأت منها شيئاً ياسطيح,فما عندك فى تأويلها؟!.

---

[٢١٩] - فظع المر كفزع فظاعة : إذا هاله وغلبه .

[٢٢٠] هو شق بن مصعب وزعموا أنه كان شق إنسان

[٢٢١] - الحممة تجمع على جمم وهى الفحمة أو الرماد وكل ما احترق من النار . وتطلق الحممة على الجمر مجازاً باعتبار ما يئول إليه وهو المراد هنا

[٢٢٢] - الظلمة : الظلام

فقال :- أَحلفُ بما بين الحَرَّتين[٢٢٥] من حنش ليهبطن أرضكم الحبش[٢٢٦] فليملكن ما بين أبين[٢٢٧] إلى جُرش[٢٢٨]. فقال له الملك: وأبيك[٢٢٩] يا سطيح إن هذا لنا لغائظ موجع، فمتى هو كائن؟ أفى زمانى هذا . أم بعده؟ . قال :- لا بل بعده بحين . أكثر من ستين أو سبعين ، يمضين من السنين.

قال : أَفَيَدُومُ ذلك من ملكهم أم ينقطع ؟ قال: لا. بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين. ثم يقتلون بها أجمعون. ويخرجون منها هاربين.

قال: ومن يلى ذلك من قتلهم وإخراجهم؟. قال : يليه إرم[٢٣٠] ذى يزن يخرج عليهم من عدن . فلا يترك أحداً منهم باليمن . قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع؟ قال : بل ينقطع. قال ومن يقطعه؟ قال: نبى زكى يأتيه الوحى. من قِبل العلىَّ، قال : وممن هذا النبى ؟ قال: رجل من ولد غالب بن

---

[٢٢٣] - التهمة بالتحريك: هى الأرض المنصوبة إلى البحر............ ويقال أيضاً : أرض تهمة كفرحة أى شديدة الحر من التهم . بالتحريك وهو شدة الحر . وفى رواية ابن الأثير :- بهمة- بالباء. أى كثيرة البهمى وهو بالضم: اسم نبت. والضبط الأول أرجح .

[٢٢٤] - كل نفس

[٢٢٥] - الحرة : أرض ذات حجارة سود .

[٢٢٦] - الأحباش

[٢٢٧] - محل باليمن منه مدينة عدن

[٢٢٨] - محل باليمن من جهة مكة

[٢٢٩] - قسم او يمين

[٢٣٠] - الإرم . كعنب: العلم بالتحريك. أو خاص بعاد . والعلم سيد القوم : أى يتولاه سيد بنى ذى يزن . وهو سيف بن ذى يزن.

فهربن مالك بن النضر. يكون الملك فى قومه إلى آخر الدهر. قال:وهل للدهر من آخر؟ قال نعم: يوم يجمع فيه الأولون والآخرون . يُسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون. قال : أحق ما تخبرنا يا سطيح؟ قال نعم .

والشفق. والغسق. والفلق[٢٣١] إذا انشق، إن ما أنبأتك به لحق.

وهكذا التزم سطيح السجع فى كل جواب على كل سؤال للملك.

وهو أسلوب تبدو فيه الصناعة اللفظية المفتعلة التى يقصد بها تزيين الكلام لا ستمالة المخاطب . و ن كان فيه بعض التنبؤات التى تحققت . ومنها تولى سيف بن ذى يزن. ومبعث النبى صلى الله عليه وسلم وما أنزل إليه من وحى ينظم أمور الدنيا والآخرة.

خلاصة القول فى مجالات الخطابة فى العصر الجاهلى:

- إن العرب فى الجاهلية قد عمروا الجزيرة العربية من أقصاها إلى أدناها ، إن هؤلاء العرب عاشوا جماعات أو

---

[٢٣١] جمهرة خطب العرب جـ١ صـ٩٢

قبائل متجاورة . يسودها السلام والوءام تارة.ويسودها الحرب والخصام تارة.

- ونظراً لهذا.وُجِدَ بين العرب اللسن الفصحاء.الذين كـانوا يتـأثرون بـالمواقف آمـالاً . أو آلامـاً . فتجـيش بهـا صدوروهم . وتنطق بها ألسنتهم شعراً أو نثراً . وإن كان الشعر فى العرب أكثر من النثر[٢٣٢].

- وهذا يؤكد لنا بكل وضوح : أن الجهل الذى ساد فى العرب . واتصفوا به قبل الإسلام . ليس نقيضاً للعلم والمعرفة. وإنما هو الطيش والشطط أو المغالاة فى الأمور[٢٣٣]. وإلا كيف تفسر ما اشتهر فيهم من فنون العلوم والمعارف والتى منها: الطب والعيافة. والقيافة وعلم الأنساب.................الخ.

ولسعة معارف العرب وعلومهم . اتسعت مجالات الخطابة عندهم فى كثير من المجالات – كما سبق القول تفصيلاً-

١- فى مجال الحروب والمنازعات.

٢- فى مجال رأب الصدع والمصالحات.

[٢٣٢] - سيأتى تفصيل ذلك إن شاء الله .

[٢٣٣] - كذبح الناقة الوحيدة لإكرام الضيف. أوقتل الأولاد خشية الفقر. أو قتل البنات مخافة العار..........الخ.

٣- في مجال المفاخرات والمنافرات.

٤- في مجال الوعظ والإرشاد

٥- في مجال الزواج أو الإملاك.

٦- في مجال الرثاء والتأبين.

٧- في مجال الوفادة والمقابلات.

٨- في مجال الوصايا.

٩- في مجال المدح والثناء.

١٠- في مجال الكهانة.

إلى غير ذلك من المجالات التي يعجز المقام عن الإلمام بها جميعاً.

وقد وقف الإسلام الحنيف من هذه المجالات: إما موقف المؤيد كما هو الحال في مجال المصالحات. أو الوعظ والإرشاد.

= وإما موقف المهذب لها. كما هو الحال في مجال المفاخرات. أو الوصايا أو الزواج أو الرثاء.

= وإما موقف الرافض لها. كما هو الحال في مجال المنافرات والكهان.

= لماذا يرفض الإسلام خطب المنافرات والكهان :

يرفض الإسلام الحنيف كل ما يثير حفيظة الإنسان وكل ما يؤدى إلى التباغض والتقاطع بين الناس . وفى مقدمة هذا : تلك الألوان من الخطب التى كانت متصلة بعادات الجاهلية وتقاليدها.من التفاخر بالأنساب والأحساب . والمآثر الموروثة عن الآباء والأجداد . مما يثير حفيظة الآخرين ويؤدى إلى اشتعال نيران الحروب والأحقاد بين الناس.

كتلك المفاخرة والمنافرة التى حدثت بين عامر بن الطفيل . وعلقمة بن علاثة. والتى حكمها هرم بن قطبة الفزارى[٢٣٤].

أما المفاخرات التى تخلو من عنصر التنافر . وإثارة الأحقاد والبغضاء بين الناس.فقد وجدت فى خطابة الوفود التى كانت تأتى للنبى صلى الله عليه وسلم معلنة ولاءها وإسلامها للنبى صلى الله عليه وسلم ولم ينكرها صلى الله عليه وسلم .

كما حدث بين عمرو بن الأهتم. والزبرقان بن بدر بحضرته صلى الله عليه وسلم[٢٣٥].

---

٢٣٤ - راجع صفحة ٨٠ من هذا البحث.
٢٣٥ البيان والتبين جـ١صـ٣١

وكذلك ما حدث بين الصحابة الكرام يوم السقيفة من إشادة خطيب الأنصار وخطيب المهاجرين كل منهما بفضل قومه فى نصرة الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم[٢٣٦]

ومن ألوان الخطابة التى يرفضها الإسلام وقضى عليها قضاءً مبرماً.

سجع الكهان . وذلك لاتصال هذا اللون الخطابى بالوثنيات التى قضى عليها الإسلام . لما فيها من ادعاء الكاهن للغيب الذى لا يعلمه إلا الله تعالى . ثم لأن هذا السجع فيه صناعة لفظية مفتعلة يملؤها التكلف لإيهام المستمع مجارة الكاهن لأسلوب القرآن الكريم.مثلما ظهر على ألسنة مدعى النبوة أمثال: مسيلمة الكذاب الحنفى من أهل اليمامة . وقد ادعى النبوة بمكة قبل الهجرة . ومن أسجاعه قوله:- والشمس وضحاها . فى ضوئها ومجلاها. والليل إذا عداها. يطلبها ليغشاها.فأدركها حتى أتاها. وأطفأ نورها ومحاها. وقوله:- ياضفضدع نقى نقى.كم تنقين. لا الماء تعكرين.ولا الشرب تمنعين.وكان مسيلمة قد قوى أمره فى اليمامة. وظهرجداً بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم.فأرسل إليه أبو بكر الصديق خالد بن الوليد فى جيش لمقارعته فكان النصر

[٢٣٦] - جمهرة خطب العرب جـ١صـ١٧٣ وكتب السيرة الشريفة .

حليف خالد يوم اليمامة . وقتل مسيلمة وكثير من أتباعه واستشهد ألف ومائتان من المسلمين حفظة القرآن الكريم رضى الله عنهم وأرضاهم[٢٣٧] .

= مدى عناية العرب فى الجاهلية بالخطابة:

إن اهتمام العرب فى الجاهلية بالخطابة اهتمام بالغ الحد . لأن العرب أهل لغة . وصناعتهم الكلام . وفيهم لسن وفصحاء. وهم كغيرهم من الأمم خضعوا لسنن الإجتماع البشرى التى تتطلب كثيراً من الحكمة وسداد الرأى وفصل الخطاب . وبلاغة المنطق وذرابة اللسان، كما كانوا يأنسون وكثير من أوقاتهم إلى مَنْ يحدثهم فى أمور حياتهم ومعاشهم ومعادهم، من واقع خبرته وثاقب رأيه . ما فيه العبرة والعظة كما كان كعب بن لؤى وقس بن ساعدة.......... وغيرهما.

هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا يدربون عليها فتيانهم فى حداثة سنهم ووضعوا لخطبهم أسماء مشهورة- شأنهم فى ذلك عندما وضعوا أسماء لقصائدهم المسماة بالمعلقات.

فيذكر من أسماء خطبهم :- العجوز، وهى خطبة لآل رقبة ومتى تكلموا فلابد لهم منها أو من بعضها.

---

[٢٣٧] البيان والتبين جـ١صـــ٣٥٩ والسيرة النبوية لابن هشام وغيره

والعذراء. وهى خطبة قيس بن خارجة.

والشوهاء . وهى خطبة سحبان وائل. وقيل لها ذلك : من حسنها. وذلك أنه خطب بها عند معاوية . فلم ينشد شاعر . ولم يخطب خطيب[238].

أو قيل لها الشوهاء. لأنها لم تطعم بآيات من القرآن الكريم . فكأنها مشوهة بخلوها من القرآن الكريم.

وكل هذا يؤكد بكل وضوح مدى عناية العرب بالخطابة . وأنها كانت كثيرة مشهورة لديهم: واشتهر فيهم كثير من الخطباء المصاقع التى امتلأت بذكرهم كتب الأدب والخطابة [239].

ومع كثرة الخطابة والخطباء العرب قبل الإسلام . إلا أن المأثور من هذه الخطب فى كتب الأدب قليل لا يتناسب مع كثرة الخطباء، ويرجع سبب ذلك، إلى أن الكثير من هذه الخطب ذهب مع أحداث الزمان والمكان والإنسان. وذلك:-

---

[238] - البيان والتبين جـ1صـ348

[239] - الخطابة:أبو زهرة صـ238

أ- لانتشار الأمية ، فقد كان العرب أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب إلا القليل منهم – فلم يكن يعلق بأذهانهم إلا الشعر . لضبط الأوزان والقوافى له . أما النثر - - ومنه الخطابة – فهو مرسل غير مقيد بوزن ولا بقافية. لذلك فهو سريع العلوق بالذهن. سريع الذهاب والتبخر.

وساعد على ذلك : تقادم الزمن وعدم التدوين . فمن يمت يمت بما فى ذاكرته لا يعلمه إلا الله تعالى .

وقد أشار القلقشندى إلى هذا كله بقوله[240]

واعلم أنه كان للعرب بالخطبة والنثر غاية الاعتناء . حتى قال صاحب الريحان والريعان: إن ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر.من جيد المنثور. ومزدوج الكلام.أكثر مما تكلمت به من الموزون . إلا أنه لم يحفظ من المنثور عشره..

ولاضاع من الموزون عشره.

لأن الخطيب إنما كان يخطب فى المقام الذى يقوم فيه فى مشافهة الملوك.أو حالات الإصلاح بين العشائر. أو خطبة النكاح . فإذا انقضى المقام حفظه من حفظه. ونسيه من نسيه.بخلاف الشعر فإنه لا يضيع منه بيت واحد.

[240] - صبح الأعشى جـ٢ صـ٢١٠

وليس معنى هذا رفض النثر عندهم . أو لقلة اعتنائهم به .

بل لشيوع قول الشعر فى الحواضر والبوادى . وبين الخاصة والعامة. وسهولة حفظه. وكون الخطب لا تكون إلا من عظماء الفصحاء. واختصاصها بالمواقف العظيمة التى ربما لا يحضرها وهماء العرب. فقد كان يقوم بها فى الجاهلية سادات العرب ورؤساؤهم ممن فاز بقدح الفضل . وسبق إلى ذرا المجد.

ويخصون ذلك بالمواقف الكرام . والمشاهد العظام . والمجالس الكريمة والمقامات الحفيلة. وما يلقى على العامة تتبادله الألسن. أما ما يلقى على الخاصة فغير شائع .
ولا معروف . ولاتتناقله الرواة..........

ولم تعن الرواة بنقل أخبار الخطباء وخطبهم . إلا بعد أن وصلت الخطابة إلى منزلة أسمى من الشعر لإبتذاله بتعاطى العامة والسفهاء له . وإتخاذهم له وسيلة للعيش . والطعن على المحرمات ، والخوض فى الأعراض.

مما جعل أبو عمروبن العلاء يقول:- كان الشاعر فى الجاهلية يقدم على الخطيب.لفرط حاجتهم إلى الشعر. الذى يقيد

عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم . ويهول على عدوهم. ومن غزاهم . ويُهيِّب من فرسانهم ، ويخوّف من كثرة عددهم . ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم.

فلما كثر الشعر والشعراء.واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة وتسرعوا إلى أعراض الناس.صار الخطيب عندهم فوق الشاعر . ولذلك قال الأُوَلُ:- الشعر أدنى مروءة السَّرِيّ. وأسرى مروءة الدَّنِيّ.

ولقد وضع قول الشعر من قدر النابغة الذبياني . ولو كان في الدهر الأول ما زاده ذلك إلا رفعة[241].

ولذلك : ارتفع شأن الخطابة.واشتهر بها الأشراف . وأصبح لكل قبيلة خطيب.كما كان لكل قبيلة شاعر.يحفظ عليهم مآثرهم. ويفخم من شأنهم . ويهول على عدوهم . بل كان كل واحد منهم في نفسه خطيبا[242]، حتى فاضت قرائح شعراء الجاهلية والمخضرمين بالعديد من القصائد التي تبين منزلتهم وأقوامهم في الخطابة والبلاغة ، ويقول قيس بن عاصم المنقرى مبيناً مآثر قومه.ومنها تفوقهم في الخطابة.:-

[241] - البيان والتبين جـ1 صـ42
[242] - فن الخطابة : على محفوظ صـ23

إني امرؤ لا يعتري خُلقي

دنس يفنده ولا أفن[٢٤٣]

من منقر في بيت مكرمة

والأصل ينبت حوله الغصن

خطباء حين يقوم قائلهم

بيض الوجوه مصاقع لسن[٢٤٤]

وقال آخر في خطيب تبارى معه حتى أفحمه وتفوق عليه:

وخطيب قوم قدّموه أمامهم

ثقة به متخمط تيّاح

جاوبتُ خطبتهُ فظل كأنه

لما خطبتُ مملح بملاح[٢٤٥]

---

[٢٤٣] - فنده: لامه وَضَعَّفَ رأيه والأفن ضعف ال[illegible] والعقل.

[٢٤٤] - البيان والتبين جـ ١ صـ ٢١٨

سل الخطباء هل سبحوا كسبحى

بحور القول أو غاصوا مغاصى.

لسانى بالنثير وبالقوافى

وبالأسجاع أمهر فى الغواص [٢٤٦]

وقول حسان بن ثابت رضى الله عنه، وهو من الشعراء المخضرمين عاش فى الجاهلية قرابة الستين عاماً . حين يفخر بخطابة خاله وأبيه وجده وعمه..

إن خالى خطيبُ جابية الجو

لان عند النعمان حين يقوم

وأبى فى سميحة القائل الفا

صل يوم التقت عليه الخصوم

وجدى خطيب الناس يوم سميحة

وعمى ابن هند مطعم الطير خالد [٢٤٧]

---

[٢٤٥] - المتخمط المتكبر مع غضب. التيّاح : المثيّخ الذى يغوص فى كل شىء ويدخل فيما لا يعنيه. وممليح بملاح: اى مُتقنّص كأنه مُلّخ من الملح. البيان والتبيين جـ١ صـ١٧٨ ـ ١٧٩

[٢٤٦] - النثر : الكلام المنثور. القوافى : خواتيم أبيات الشعر . والاسجاع الكلام المقفى غير الموزون .

وكل هذا يؤكد براعة العرب قبل الإسلام فى مجال الخطابة . وإن كان ما وصلنا منها قليل ، للأسباب التى ذكرتها آنفاً.

عوامل ازدهار الخطابة فى العرب قبل الإسلام-

ازدهرت الخطابة العربية قبل الإسلام بسبب عوامل كثيرة

من أهمها:-

أولاً : تمتعهم بالحرية التى قلما تتوفر لغيرهم من الأمم والشعوب.وباستعراض أحوال الأمم المجاورة للعرب منذ فجر التاريخ نجد أنه كان لليونان والرومان خطابة وخطباء . وكذلك للمصريين . والآشوريين.و البابليين.والفرس.والهنود ....الخ . إلا أن حظ هؤلاء جميعاً من الخطابة قليل بالنسبة لما كان عليه العرب ، وذلك لإنصراف هؤلاء جميعاً إلى متطلبات الرفاهية.وبحثهم عن وسائل الحكم والسلطان وتوارث ذلك بين الأجداد والآباء والأبناء.

---

[247] - ديوان حسان بن ثابت القصيدة الخامسة والسابعة

ثانيا : مقدرة العرب البالغة على الحديث وتشقيق الكلام . فهم أهل فصاحة، وصنعتهم الكلام . وباللسن اشتهروا . وبالبلاغة افتخروا .

ثالثا : قوة إحساس العربى، ورقة مشاعره . وصفاء قريحته، وذرابة لسانه.

وعيشته فى الصحراء المترامية الأطراف وتحت السماء الصافية ، كل هذه البيئة بما فيها من آمال وآلام من أعظم الدواعى إلى الخطابة . ويصور صاحب كتاب فن التكلم فى الجمهور . هذا كله بقوله : " تصور راعيا يسوق نعمه فى الخلاء، وقد حَيَّتْه ابتسامة الفجر، وهو يفتح للشمس قصره الذهبى . أو ناجاه الشفق الوردى، وهو يخلع على الكون رداء السكون . وانظر أى أثر يكون لهذا المشهد فى نفسه، فقد يقف صامتاً جامداً مأخوذا بروعته وجلاله . أو يتناول مزماره وينفخ فيه زاهراً وطربا . و إذاكان خطيباً يرفع رأسه وعينيه ويدعوا إليه قوى الوجود الخفية، باحثاً عنها فى الريح العاصفة أو الموجة الثائرة. أو الغصن المائل مع الهواء أو الصخرة الصماء، ومن هذا ترى كيف تكون قوة العاطفة . مع المنظر الكونى الذى يهز النفس البشرية ويأخذ بلب العاقل .

دافعة إلى البيان الرائع إن تهيأت أسبابه.وقد جعل الله للعربى من أمته سبيلاً لفصاحته[٢٤٨] .

رابعاً :- انتشار العادات والتقاليد الخاصة بالزمان والمكان والإنسان.فقد ازدهرت الخطابة بين العرب قبل الإسلام نتيجة لما كان عليه العرب من النعرة والحمية.وشن الغارات فى المدافعة عن النفس والمال والعرض . والمفاخرة فى الشعر والخطب بالحسب والنسب.وقوة العصبية. وشرف الخصال. من الشجاعة والكرم والنجدة وحماية الجار.......

وإباء الضيم . وللقول فى ذلك أثر لا يقل عن الصول[٢٤٩] .

خامساً :- من أسباب ازدهار الخطابة فى العرب قبل الإسلام :-

اللغة العربية نفسها ، فهى ذات نغم يثير المتكلم والسامع.ويبعث الخطيب على الاستمرار فى حديثه. ولهذا كانت لهم مقدرة على الارتجال.ومواجهة الموضوع الذى يطرأ من غير أن يكونوا قد أعدوا له حديثاً ، ومع ذلك تأتى على لسانهم العبارات البليغة.والحكم الصائبة ، يقول الجاحظ :- ((

[٢٤٨] - هو الأستاذ المستشرق كرنكوس. ويراجع كتاب الخطابة للشيخ أبى زهرة صـ ٢٢٢

[٢٤٩] - فن الخطابة للشيخ على محفوظ صـ ٢١

فما هو إلا أن يصرف – العربى- وهمه إلى جملة المذهب . وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالاً[٢٥٠] وتنثال[٢٥١] عليه الألفاظ انثيالاً[٢٥٢]..........

خصائص خطابة العرب قبل الإسلام

لما كان القصد من الخطابة – ومنها الخطابة العربية قبل الإسلام – هو امتلاك القلوب واستمالة المشاعر، مع إقناع العقول . كان الاعتماد فيها على: الأدلة والبراهين – إلى حد ما- مع الأقوال الخطابية المحركة للمشاعر. والمؤثرة فى النفوس، ممثلة فى العبارات الرائعة. والأساليب المتينة. والألفاظ العذبة . لتستولى على القلوب . وتستميل المشاعر . وكثرة الفواصل والأسجاع لحسن وَقْعِهاَ . وجمال جرسها ، بالإضافة إلى ما فيها من استرواح الخطيب، وسهولة تدارك المعانى[٢٥٣].

ولمكانة الخطابة العربية قبل الإسلام، لابد من بيان أهم خصائصها و سماتها التى تميزت بها عن غيرها عبر العصور، وتظهر خصائص الخطابة العربية فيما يلى:-

---

[٢٥٠] - ارسالاً جمع رَسَلَ بالتحريك: بمعنى أفواجا
[٢٥١] - تنثال : تسيل وتتوالى والخطابة
[٢٥٢] - البيان والتبين جـ١صـ٢٧، د/ شلبى صـ١٨٤
[٢٥٣] - فن الخطابة : للشيخ على محفوظصـ٢٢

أولاً : الأفكار   ثانياً: المعانى   ثالثاً: الموضوع

رابعا: الأسلوب.   خامسا :- الألفاظ

أولاً الأفكار:-

يلاحظ على أفكار الخطابة العربية قبل الإسلام :

١- أنها أفكار سهلة بسيطة غالباً . فكان الخطيب يعرض أفكاره على السامعين وفق هواه ، أو حسبما تتراكم فى مخيلته.

٢- عدم الركون إلى الحجج والبراهين . لأن الخطيب يقف من قومه موقف الحكيم المجرب. فيخطبهم حين تأتيه الفكرة ، بما لديه من ألفاظ ضرورية دون التأييد لفكرته بالأدلة والبراهين اللازمة استناداً إلى خبرته فقط.

٣- محدودية الأفكار . لأن العرب مع اتساع بيئتهم وكثرة تنقلهم وأسفارهم كان عندهم اعتزاز بعادتهم وتقاليدهم. فلم يتأثروا بغيرهم .

فكانت أفكار خطبهم محدودة . ومن واقع التجارب الشخصية أو الذاتية للخطيب . وإن كان الأمر لا يخلو من

تعمق بعض الخطباء فى بعض الخطب إلا أنه لا يمثل ظاهرة عامة فى خطب العرب قبل الإسلام.

٤- تعدد الأفكار و عدم تسلسلها فى قالب واحد . لتستوفى الموضوع كله، ولذلك يغلب على خطبهم عدم تماسك الأجزاء . ومن ذلك خطبة أكثم بن صيفى ينصح فيها قومه يقول :- " أقلّوا الخلاف على أمرائكم . واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل. والمرء يعجز لا محالة، ياقوم تثبتوا فإن أحزم الفريقين الركين[٢٥٤].

ورب عجلة تهب رَيْثا[٢٥٥]. واتزروا للحرب . وادَّرعوا الليل . فإنه أخفى للويل . ولا جماعة لمن اختلف[٢٥٦] - فهذه الخطبة . ما هى إلا حكم متناثرة ، أشبه ما تكون دراً منثوراً غير منتظم فى سلك واحد !!

ثانيا المعانى :-

يلاحظ على معانى خطب العرب قبل الإسلام :

---

[٢٥٤] - الرزين

[٢٥٥] - التأنى أو البطء

[٢٥٦] - جمهرة خطب العرب جـ١ صـ١٣٥

١- أنها معان فطرية غير متكلفة أو مصطنعة . لأنها ناشئة عن اللمحة العارضة . والفكرة الطارئة . دون كد للفكر أو تعمق فى النظر. على حد قول الجاحظ :- كل شىء للعرب ـ ومنه المعانى - فإنما هو بديهة وارتجال . وكأنه إلهام . وليست هناك معاناة ولا مكابدة. ولا إجالة فكر . ولا استعانة. وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام.وإلى رجز يوم الخصام. أو حين يمتح على رأس بئر . أو يحدو ببعير . أو عند المقارعة أو المناقلة أو عند صراع أو فى حرب. فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب . وإلى العمود الذى إليه يقصد . فتأتيه المعانى أرسالاً. وتنثال[٢٥٧] عليه الألفاظ إنثيالاً.

٢- كما يبدو فى هذه المعانى الصدق والحقيقة وعدم المزايدات أو التهويل.مما جعلها بعيدة عن الإغراق فى المبالغة. وذلك لما انتشر فيهم من الصراحة والصدق وتحرى الحقيقة.

[٢٥٧] - أرسالاً : أفواجا . وإنثيالاً: تتوالى. البيان والتبيين جـ ١ ص ٢٨

ثالثا الموضوع :-

يلعب موضوع الخطبة دوراً هاماً فى نجاح الخطبة, خاصة إذا روعى فيها التقسيم المنهجى . وبالنظر فى خطب العرب قبل الإسلام يلاحظ عدة أمور منها:-

٠- الموسوعية وعدم الوحدة الموضوعية ، فكان الخطيب – غالباً – ما يدخل فى عدة موضوعات. ويطرق باب كل موضوع . ويأخذ منه مالا يروي ظمأ المستمع ولا يشبع نهمه فى التعرف على الموضوع بكل جوانبه.

١- كما هو الحال فى خطبة كعب بن لؤى. وقس بن ساعدة. حيث دارت الخطبتان حول التبصر فى الحياة التى يعيش فيها الإنسان من حيث الزمان :ليل ونهار. وظلمة ونور. ومن حيث المكان : أرض وجبال. وسماء وبحار . ثم تنتقل الخطبة إلى الحديث عن الحياة والموت . ثم الحديث عن مكارم الأخلاق ، ثم الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم . وعن الحرم ومكانته ....الخ.

٢- افتقاد الوحدة العضوية للخطبة : إن الخطبة لا بد أن يكون فيها ترتيب وتنسيق بين أجزئها التى تتمثل فى المقدمة. والعرض والتدليل والخاتمة . والخطيب العربى قبل

الإسلام يفاجىء المستمع بالعرض دون مقدمة ، ثم ينتهى من خطبته.ولا يشعر المستمع بعلامات الخاتمة أو قربها . فيقطع على المستمع أفكاره وما يدور فى خياله.

إذاً فليس فى الخطبة مقدمة تنبىء عن حسن الافتتاح . ولا تنسيق بين أجزاء الموضوع ، وبالتالى كانت الخطبة غير متماسكة لإفتقاد تماسك أجزائها.

رابعاً الأسلوب:-

يتميز أسلوب الخطابة العربية قبل الإسلام ببعض المميزات التى تميزه عن غيره من أساليب العصور المختلفة . ومن أهم هذه المميزات:-

١- البساطة وعدم التكلف . فأسلوب العرب فى الكلام لا تكلف فيه ولا تصنع ، وذلك لعدم عنايتهم بزخرفة القول . واهتمامهم بما تجود به قريحتهم ارتجالاً . ولذلك خلا أسلوبهم من المحسنات اللفظية التى يشتمل عليها علم البديع فى البلاغة.

٢- قصر الجمل والفقرات : دأب خطباء العرب قبل الإسلام على تقصير جملهم فى الكلام مما أدى إلى تقصير الفقرات . وكأنهم فى ذلك :

أ- كانوا يخشون الوقوع فى الخطأ اللغوى مع امتلاكهم للكلمات وسيطرتهم على اللغة.

ب- أو كانوا يظنون أن من البلاغة تقصير الجمل . ومن البيان عدم الإطناب فى الفقرات.

جـ- أو كانوا يظنون أن إفادة المستمع بهذا تكون أكثر حتى يسهل عليه حفظ الخطب أو فهمها . وهذا إن كان فيه بعض الصواب إلا أنه كان ينبغى ألا يكون سنة متبعة عند كل الخطباء فى ذلك العهد وتكون كل جملهم وفقراتهم قائمة على الفعل و الفاعل . أو المبتدأ والخبر متغافلين عن بقية مكونات الجمل والفقرات. ومن أمثلة ذلك :-

كل الخطب التى ذكرتها آنفا[٢٥٨]. بالإضافة إلى خطبة الملبب بن عوف يعزى سلامة ذا فائس فى ابن له مات قائلاً: أيها الملك: إن الدنيا تجود لتسلب. وتعطى لتأخذ. وتجمع لتشتت. وتحلى لتمر. وتزرع الأحزان فى القلوب. بما تفجأ به

---

[٢٥٨] - راجع صفحة ٨٦ من هذا البحث

من استرداد الموهوب. وكل مصيبة [٢٥٩]مخطأتك جلل. مالم تدن الأجل . وتقطع الأمل . وإن حادثاً ألمَّ بك . فاستبد بأقلك. وصفح عن أكثرك لَمِنْ أَجَلّ النعم عليك.وقد تناهت إليك أنباء من رزى فصبر، وأصيب فاغتفر، إذا كان شوى [٢٦٠] فيما يرتقب ويحذر . فاستشعر اليأس عما فات . إذا كان ارتجاعه ممتنعاً . ومرامه مستصعباً. فلشئ ما ضربت الأسى.و فزع أولوا الألباب إلى حسن العزاء.[٢٦١].

وكان نتيجة قصر الجمل والفقرات أن فقدت الكلمات موسيقاها اللفظية . فبينما يستعد المستمع لكلمات ذات وَقْعٍ معين . إذا بالخطيب يقف فجأة . وتكاد الألفاظ أحياناً تصطدم ببعضها . وتحدث جلبة وصدىً فى الرؤوس. ومن أمثلة ذلك؛ خطبة أكثم بن صيفى التى ينصح فيها قومه- أقلّوا الخلاف على أمرائكم[٢٦٢].

٣-التنوع:

---

[٢٥٩]- الجلل ، ويطلق على الحادث العظيم والحقير .

[٢٦٠] - الشوى : الهين اليسير

[٢٦١] - جمهرة خطب العرب جـ١ صـ١٧

[٢٦٢] - راجع صفحة ١٠٣ من هذا البحث وفن الخطابة: د/ عبد الرحيم زلط صـ٥٧

يلاحظ على أسلوب العرب قبل الإسلام في خطابتهم أنه منه المرسل[٢٦٣] . ومنه المزدوج [٢٦٤] ومنه المسجوع[٢٦٥] .

ومن الملاحظ على الخطابة العربية قبل الإسلام أن السجع والازدواج كانا أكثر شيوعاً على ألسنة الخطباء من الأرسال . لأن المروى من خطب هذه الفترة أكثره مسجوع أو مزدوج[٢٦٦] وسبب ذلك :-

- أن الخطيب ربما لجأ إلى السجع ليستمد منه العون فى تزوير الكلمات . وتنميق الجمل وتدبيج الفقرات . أو العبارات أعتقاداً منه أن السجع له بالغ الأثر فى استمالة المستمع قلبا وعاطفة وربما عقلا .

- أو أنه يقرب فهم الكلام إلى أذهان المستمع.

- أو أنه يرفع قدر الخطيب ومنزلته بين الناس.

- أو أنه مسايرة من الخطيب لما كان يغلب على عصرهم من سجع الكهان. الذين كانوا يسحرون الناس

---

[٢٦٣] - المرسل: من أرسل بمعنى أطلق . يقال : أرسل الكلام : أطلقه من غير تقييد

[٢٦٤] - ازدوج الكلام: أشبه بعضه بعضاً فى السجع أو الوزن

[٢٦٥] - سجع الكلام : أى تكلم بكلام له فواصل كفواصل الشعر. مقفاً غير موزون — المعجم الوسيط صـ ٤١٧ وصـ ٣٤٤ و ٤٠٥

[٢٦٦] - راجع أمثلة هذه الخطب فى صفحة ٨٦ من هذا الكتاب

بكلامهم.ويملكون عليهم أفئدتهم بموسيقى السجع التى تخدر فيهم حاسة النقد.

- وقد أوضح هذا كله عبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشى . عندما قيل له : لِمَ تُؤْثِرُ السجع على المنثور، وتلزم القوافى وإقامة الوزن ؟ قال:- إن كلامى لو كنت لاآمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافى عليك . ولكنى أريد الغائب والحاضر.

والراهن الغابر.فالحفظ إليه أسرع . والآذان لسماعه أنشط. وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلُّت . وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون . فلم يحفظ من المنثور عشره ،ولاضاع من الموزون عشره.

قالوا:- فقد قيل للذى قال: يا رسول الله : أرأيت من لا يشرب ولاأكل . ولا صاح ولا استهل . أليس مثل ذلك يُطل[٢٦٧]؟ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أسجع كسجع الجاهلية.

---

[٢٦٧] - يُطل: أى يهدردمه

قال عبد الصمد : لو أن هذا المتكلم لم يرد الإقامة لهذا الوزن. لما كان عليه بأس. ولكنه عسى أن يكون أراد إبطال حق . فتشادق فى الكلام[268].

وهذا كله يؤكد أن السجع كان الصورة الغالبة على الخطابة العربية قبل الإسلام. ولم يكره فى الإسلام إلا ما كان متكلفاً أو محقاً لباطل. أو مبطلاً لحق. أما ما خرج بالفطرة والسليقة فلا حرج فيه . بل كان مستحسناً . كالخطب المروية عن العرب مع قلتها فى كتب الأدب بالنسبة للشعر وذلك: لنفاستها,وسهولة حفظها . وقوة علوقها بالنفس . وثباتها فيها[269].

٤ـ الأصالة وعدم التقليد :

يمتاز أسلوب الخطابة العربية : أنه أسلوب أصيل لم ينقله العرب عن غيرهم من الأمم الأخرى . ففن الخطابة عندهم يمتاز بأنه مبتكر,ومن صميم صناعتهم- وإن البدوى البادى راعى الإبل . ما كان يمر بشئ من ذلل لا يفهمه ، ولا

---

[268] البيان والتبين جـ١صـ٢٨٧
[269] ـ الخطابة أبو زهره صـ٢٣٤

يخطر بباله . ومع هذا فإنه كان يأتى بالسحر الحلال إن قال شعراً . أو تكلم نثراً[270].

٥- مراعاة مقتضى الحال إيجازاً أو إطناباً:-

امتازت خطابة العرب قبل الإسلام . بأن الخطباء كانوا يراعون مقتضى حال الموضوع أو الفكرة طولاً أو قصراً . فقد كانت لهم خطب طوال. وأخرى قصار . ولكلٍ حالٌ تقتضيه. أو مقام يليق به . فالحاجة إلى الإيجاز فى موضعه . كالحاجة إلى الإطناب فى مكانه. كما روى عن جعفر بن يحى أنه قال مع عجبه بالإيجاز : متى كان الإيجاز أبلغ ، كان الإكثار عيًا. ومتى كانت الكناية فى موضع الإكثار.كان الايجاز تقصيراً[271]

وقيل لأبى عمرو بن العلاء : هل كانت العرب تطيل ؟ قال : نعم كانت تطيل ليسمع منها . وتوجز ليحفظ عنها[272] إذاً فالإطالة ممدوحة فى مكانها.والإيجاز ممدوح فى مكانه.

ومن المجالات الخطابية المحمود فيها الإطناب: خطب النكاح حيث يطيل الخاطب ويقصر المجيب. وكذلك يستحبون الإطناب فى خطب الصلح بين المتخاصمين . وفى هذا يقول

[270] - الصناعتينص ٢٠٩
[271] - السابقة ص ٢١١

الجاحظ:- والسنة فى خطبة *النكاح* أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب. ألا ترى إلى قيس بن خارجة بن سنان لما ضرب بصحيفة سيفه مؤخرة راحلتى الحاملين فى شأن حمالة[٢٧٣] واحس والغبراء[٢٧٤]. وقال: مالى فيها أيها العشمتان[٢٧٥] . قالا: بل ما عندك؟ قال : عندى قِرى كل نازل، ورضا كل ساخط. وخطبة من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب .آمر فيها بالتواصل وأنهى فيها عن التقاطع . قالوا: فخطب يوماً إلى الليل . فما أعاد فيها كلمة ولا معنى فقيل لأبى يعقوب: هلا اكتفى بالأمر بالتواصل عن النهى عن التقاطع. أو ليس الأمر بالصلة هو النهى عن القطيعة . قال: أو ما علمت أن الكناية والتعريض. لا يعملان فى العقول عمل الإفصاح والتكشف[٢٧٦].

وربما كانوا يطيلون فى مثل هذه الخطب للإكثار من الحديث عن الصلح أو الإصلاح . وما له من أثر فى انتشار الأمن والأمان بين الناس واستقامة حياتهم ومعاشهم وقد قال الجاحظ فى وصف واستحسان الخطب الطوال: - ومن الطوال

---

[٢٧٣] - الدية التى يحملها قوم على قوم

[٢٧٤] - أسماء فرستان فى الحرب التى قامت بين قبيلتى عبس وذبيان

[٢٧٥] - واحدها عشمة . وهو الطمع.

[٢٧٦] - البيان والتبيين جـ١ صـ٦٤

ما يكون مستوياً فى الجودة، ومتشاكلا فى استواء الصنعة، ومنها ذوات الفِقَرِ الحسان، والنُتف الجياد......[٢٧٧].

ومع هذا، نجد أن خطباء العرب قبل الإسلام كانوا إلى الخطب القصار أميل . حتى إننا نجد أحياناً بعض الخطب لا تزيد عن أربعة جمل . كخطبة عمرو بن كلثوم – وهو من أخطب العرب وَأَشْعَرِهِمْ- والتى يقول فيها:- .... أما بعد فإنه لا يخبر عن فضل المرء أصدق من تركه تزكية نفسه. ولا يعبر عنه فى تزكيته أصحابه أصدق من اعتماده إياهم برغبته. وائتمانه إياهم على حرمته[٢٧٨]

وربما كان ميل العرب فى الجاهلية إلى قصر الخطبة أكثر لأسباب . منها :-

١- ليسهل حفظ كل ما يقوله الخطيب .

٢- ولأن العرب مفطورون على أداء فكرتهم بأوجز عبارة . لصفاء قريحتهم . وَحِدَّةِ ذكائهم.

٣- ولأن الحالة العامة للحياة العربية لم تكن تستدعى الإطالة لبساطة هذه الحياة . وبساطة أهلها.

---

[٢٧٧] السابق جـ٢ صـ ٧

[٢٧٨] - جمهرة خطب العرب جـ١ صـ٣٧

٦- تطعيم الخطب بالشعر:-

من مميزات خطابة العرب قبل الإسلام أن الخطباء حرصوا على تطعيم خطبهم بالشعر . فإذا أراد الخطيب أن يبرز غرضاً ما. ويفيض فيه، ساند خطابته بأبيات من الشعر، من نظمه أو من غيره. وأحياناً كان الشعر يغلب على النثر فى بعض الخطب. فكان الشعر مدداً لهم لإفهام غرضهم. وإبراز ما يَصْبُوَنَ إليه. ومن أمثلة ذلك : خطب كعب بن لؤى. وقس بن ساعدة [٢٧٩].

ووصية الحرث بن كعب لبنيه التى يقول فيها : يابنى إنى قد أتت علىَّ مائة وستون سنة ما صافحت يمينى يمين غادر . ولا قَنَعْتُ لنفسى بخلة [٢٨٠] فاجر . ولا صَبَوْتُ بابنة عم . ولاكَنَّة [٢٨١] . وَلاَ بُحْتُ لصديق بسرٍ. ولا طرحْتُ عن مومسة قناعاً. وَلاَ بَقِيَ على دين عيسى ابن مريم – وروى- على دين شعيب- من العرب غيرى وغير تميم بن مرة وأسد بن خزيمة . فموتوا على شريعتى واحفظوا وصيتى. وإلهكم فاتقوا، يكفيكم ما أهمكم . ويصلح لكم حالكم . وإياكم ومعصيته. فيحل بكم الدمار، ويوحش منكم الديار . كونوا جميعاً ولا تفرقوا. فتكونوا

[٢٧٩] - راجع صفحة ٢٨٦ من هذا البحث
[٢٨٠] - الصداقة
[٢٨١] - الكنة: امرأة الابن أو الأخ جمعها كنائن

شيعاً. وبُزُّوا قبل أن تُبزُّوا[282]. فموت فى عز . خير من حياة فى ذل وعجز . وكل ما هو كائن كائن . وكل جمع إلى تباين. والدهر ضربان : ضرب بلاء,وضرب رخاء. واليوم يومان: يوم حيرة ويوم عبرة,والناس رجلان : رجل لك,ورجل عليك. زَوِّجوا النساء الأكفاء . وإلا فانتظروا بهن القضاء . وليكن أطيب طيبهن الماء. وإياكم والوَرْهاء,فإنها أداوأ الداء. وإن ولدها إلى أفَن[283] يكون. لا راحة لقاطع القرابة . وإذا اختلف القوم أمكنوا عدوهم . وآفة العدو اختلاف الكلمة,والتفضل بالحسنة يقى السيئة . والمكافأة بالسيئة دخول فيها . وعمل السوء يزيل النعماء. وقطيعة الرحم تورث الهم . وانتهاك الحرمةيزيل النعمة . وعقوق الوالدين يُعقب النكد . ويخرب البلد . ويمحق العدد. والإسراف فى النصيحة هو الفضيحة والحقد يمنع الرقد . ولزوم الخطيئة يعقب البلية. وسوء الرِّعة[284] . يقطع أسباب المنفعة.

والضغائن تدعوا إلى التباين . يا بنى: إنى قد أكلت مع أقوام وشربت فذهبوا وغبرتُ . وكأنى بهم قد لحقت . ثم قال:-

---

[282] - بزه : سلبه.

[283] - ضعف الرأى والعقل، وَرِه كفرح فهو أوره: أى أحمق. وحمقاء

[284] - الرعة: الطريقة .

أكلت شبابى فأفنيته   وأبليت بعد دهور دهوراً

ثلاثة أهلين صاحبتهم   فبادوا وأصبحت شيخاً كبيراً

قليل الطعام عسير القيام   قد ترك الدهر خطوى قصيرا

أبيت أراعى نجوم السماء   أقلّبُ أمرى بطوناً وظهورا[٢٨٥]

وقد أنهى وصيته بهذه الأبيات الأربعة . وَضَمَّنَهَا خلاصة ما جاء فى الوصية كلها . وكأنها إجمال بعد تفصيل.

ونفس هذا الأسلوب نجده فى وصية دويد بن زيد لبنيه[٢٨٦].

خامساً الألفاظ:-

عندما يتتبع الباحث خطب العرب قبل الإسلام يلاحظ بعض الأمور التى تميز هذه الخطب من حيث كلماتُها وألفاظُها . ومنها :

٢٨٥ - جمهرة خطب العرب جـ١ ص٣١

٢٨٦ - السابق جـ١ ص٣٤

١ - قوة الألفاظ وجزالتها. وهذا ناتج عن:-

أ- قوة نفوسهم وشدة بأسهم. واعتزازهم بشخصيتهم وقوميتهم فتأتى كلماتهم وألفاظهم . صورة حية . لتلك القوة . وهذه الشدة . وذلك الاعتزاز على حد ما قاله صُحَّارُ بن عياش لمعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه عن البلاغة: إنها شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا[٢٨٧].

ب- ويتمثل سبب هذه القوة فى التأثر بالبيئة ومظاهرها الصحراوية وما فيها من جبال وَوِهَادٍ . فكل ما يصدر عمن يعيش فى هذه البيئة يكون مناسباً لكل ما فيها من قوة بأس وشدة لأواء.

جـ - كما ترجع قوة ألفاظ الخطب فى هذا العهد إلى : تأثر الخطيب وانفعاله بموضوع الخطبة أو فكرتها . وهذا التأثر يدفعه إلى اختيار الكلمات القوية والألفاظ الجزلة المناسبة للموضوعات التى قيلت فيها . وغالباً ما تدور هذه الموضوعات حول الدعوة إلى القتال . أو المفاخرة بالمال والآل. أو الوصف لمحبوب أو مكروه..........الخ

---

[٢٨٧] - البيان والتبيين جـ١صـ٩٦

فدأب الخطيب العربى على التمكن من كلماته وألفاظه التى يعبر بها عن المعانى والأفكار التى يريد إقناع المستمع بها.واستمالته نحوها.

فهو فى مجال الدعوة إلى القتال أو الحروب . يعمد إلى الألفاظ القوية . والكلمات الفخمة.التى تدوى دَوِىّ المدافع والقذائف. حتى تكون بمثابة عُدَّتِهِ وَعَتَادِهِ الحربى . فيأتى بكلمات : الغضب .الهجوم . الانتقام . التدمير. الدماء . الخراب ، ويمثل هذه الألفاظ ماجاء فى خطبة هانئ .بن قبيصة يحرض قومه على الحرب يوم ذى قار بقوله :- يا معشر بكر : هالك معذور، خير من ناج فرور . إن الحذر لا ينجى من القدر . وإن الصبر من أسباب الظفر . المنية ولا الدنية. استقبال الموت خير من استدباره. الطعن فى ثغر النحور . أكرم منه فى الأعجاز والظهور. ياآل بكر : قاتلوا فما للمنايا من بد [٢٨٨] .

هذا مع ملاحظة أن العربى قبل الإسلام لم يكن مجبولاً على الغلظة والشدة. وإنما كان حكيماً بليغاً يتخير لكل مقام مقالاً. ويظهر هذا فى قول جُعادة بن أفلح يُعزى سلامة ذا فائس فى ابن له مات :-

---

[٢٨٨] للأمالى لأبى على القالى جـ١صـ١٦٩

أيها الملك : لاتشعر قلبك الجزع على ما فات. فيغفل ذهنك عن الاستعداد لما هو آت. وناضل عوارض الحزن بالأنفة عن مضاهاة[٢٨٩] أفعال أهل وَهْى[٢٩٠] العقول.

فإن العزاء لحزماء الرجال . والجزع لربات الحجال[٢٩١]. ولو كان الجزع يرد فائتاً. أو يحي تالفاً . لكان فعلاً دنيئاً. فكيف وهو مجانب لأخلاق ذوى الألباب .....[٢٩٢]

كما يظهر تخيرهم للكلمات والألفاظ التى تناسب المقام، فى خطبة هاشم بن عبد مناف التى يبين فيها منزلة قريش. وما أكرمهم الله به من جوار بيته الحرام ، ثم يحثهم على إكرام زوار هذا البيت بحسن مقابلتهم . والقيام بخدمتهم والإنفاق عليهم من أطيب أموالهم . فيقول :- يا معشر قريش : أنتم سادة العرب . أحسنها وجوهاً و أعظمها أحلاماً. وأوسطها[٢٩٣] أنساباً. وأقربها أرحاماً.

يا معشر قريش : أنتم جيران بيت الله . أكرمكم بولايته وخصكم بجوارهُ دون بنى إسماعيل. وحفظ منكم أحسن ما حفظ

---

٢٨٩ - مشاكله
٢٩٠ - ضعف
٢٩١ - الحجال جمع حجلة وهى القبة وموضع يزين بالثياب والستور للعروس
٢٩٢ -الأمالى للقالى جـ٢ صـــ١٠٠
٢٩٣ - خيرها

جَـارٌ مِـنْ جَـارِهِ. فـأكرموا ضيفه . وزوَّار بيتـه . فـإنـهم يـأتونكم شُعْثاً غُبْراً[٢٩٤] من كل بلد.قَوَرِبٌ هذا البنيَّةِ[٢٩٥]. لو كـان لـى مـال يحمل ذلك لكفيتكموه . أَلاَ وَإِنِّى مُخْرِجٌ من طيْب مـالى وحلالـه. ما لم يقطع فيه رحم.ولم يؤخذ بظلم. ولم يدخل فيه حرام . فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل . وأسألكم بحرمة هذا البيت ألا يخرج رجل منكم من ماله لكرامة زُوَّار بيت الله ومعونتهم إلا طيباً . لم يؤخذ ظلماً . ولم يقطع فيه رحم . ولم يغتصب[٢٩٦].

وكل هذا يؤكد لنـا بكل وضـوح أن الخطب العربيـة قبل الإسلام لم يقتصر فيها الخطباء على الألفاظ ذات النمط الواحد المتأثر بقوة البيئة وصلابتها ، بل كـانوا يجعلـون لكـل مقـام مـا يناسبه من الألفاظ والكلمات التى تتناسب مع موضوع الخطبـة ومع جمهور المستمعين.

كما أنهم حرصوا على أصالة لغتهم . ولم يتأثروا بغيرها من اللغات.

٢- *صراحة الألفاظ فى دلالتها على الحقيقة* ، وعدم اللجوء إلى المجاز إلا فيما يتطلبه المقام. فألفـاظهم – إلا قليلاً

---

[٢٩٤] - ملبَّد الشعر أغبره
[٢٩٥] - الكعبة المشرفة.
[٢٩٦] - جمهرة خطب العرب جـ١صـ٧٤

جداً- مستعملة فيما وضعت له . وذلك لإحاطتهم الكاملة بلغتهم . وعلمهم علماً صحيحاً بمدلولات الألفاظ ووجه دلالتها عليها . وقلة حاجتهم إلى استعمال لفظ فى مدلول آخر[٢٩٧].

- كما جهدوا جهدهم فى المحافظة على أصالة لغتهم. و الترفع بها عن الدخيل.فأعملوا ذهنهم فى الحفاظ على ألفاظهم من المصطلحات الأجنبية من الفارسية والهندية وغيرهما . واعتمدوا على سليقتهم . وفصاحة لسانهم رغم ما كانوا يأتون به من غريب الألفاظ التى تحتاج إلى فترة زمنية لفهمها.

والوقوف على معانيها . كالكنايات الرائعة والأمثال السائرة . والتشبيهات المحكمة . فإن ذلك كان عندهم . ولكنه لم يكن كثيراً فى خطبهم لإرسالهم القول ارتجالاً من غير تحضير-إلا فى بعض الأحوال- كما حدث من الفاروق يوم السقيفة .

٣ - *الاهتمام بمخارج الحروف:-*

اهتم العرب فى خطابتهم بمخارج حروف الكلمات . وكانوا يتزودون لذلك بالتشدق وَهَدْل الشفاه .

[٢٩٧] - الخطابة : ابو زهرة صـ٢٣

حتى إن فريقاً منهم كانوا يتخللون كلامهم بألسنتهم تخلل البقرة الكلأ بلسانها[٢٩٨] . ومن لم يفعل ذلك . عمد إلى ضروب من التقعير والتمطيط والجهورة والتفخيم[٢٩٩].

ومدحوا سعة الفم والشدقين، على أنهما من مقومات فصاحة الإنسان . وذموا ضيق الفم وشبهوا ضيق الفم بضعاف الحشرات. وذلك من خلال تجاربهم . فقيل لأعرابى : ما الجمال؟ قال: طول القامة. وضخم الهامة . ورحب الشدق. وبُعْدُ الصوت. وقال الشاعر:-

لحا الله أفواه الدبى[٣٠٠] من قبيلة

إذا ذكرت فى النائبات أمورها.

وإنما شبه أفواههم بأفواه الدبى. لصغر أفواههم وضيقها[٣٠١].

---

[٢٩٨] - البيان والتبين جـ١صـ

[٢٩٩] - الفن ومذاهبه فى النثر العربى صـ٣٤ وفن الخطابة : د/عبد الرحيم زلط صـ٦٢

[٣٠٠] صغار الجراد والنمل جمع دباة

[٣٠١] - البيان والتبين جـ١ صـ٦٧

مكانة العرب فى الخطابة:-

لقد كان العرب فى مقدمة الأمم التى عرفها التاريخ بلاغة وفصاحة وبياناً . فمكانتهم مكانة مرموقة . ومنزلتهم أسمى المنازل. ومرتبتهم أعلى المراتب . فأحرزوا قصب السبق فى هذا المجال.

وَيُعِدُّ كثير من الأدباء العرب فى المرتبة الأولى من البيان ، والمنزلة السامية فى الخطابة، وقد ذكر ذلك أبو حيان التوحيدى فى مقابساته. إذ يقول – حاكياً- عن أبى سليمان: سمعته يقول : نزلت الحكمة على رؤوس الروم وألسن العرب . وقلوب الفرس. ويدى الصين.

وقال : الحرف[٣٠٢] الذى يدعى فى العربية وينسب إلى الأدب . موروث من العرب.وذلك أن أرضها ذات جدب ، والخصب فيها عارض . وهم من أجل ذلك أصحاب فقر وضُر ، وربما دُفِعُوا إلى وِصَالٍ [٣٠٣]. وَطَىٍّ [٣٠٤] وكل من تشبه فى كلامهم وطريقتهم وعبارتهم . ارتضى ما هو غالب عليهم.

[٣٠٢] الحَرف: الميل عن الكسب أو التكسب

[٣٠٣] - الوصال: وصل النهار بالليل جوعاً

[٣٠٤] - الطى: المبيت جوعاً

ألا ترى أن الشبع غريب عندهم والرعب مذموم منهم . وهذه هى الحالة التى فرقت بين الحاضرة والبادية . وقد زادتهم جزيرتهم شراً. لكنهم عُوِّضوا الفطنة العجيبة، والبيان الرائع . والتصرف المفيد . والاقتدار الظاهر. لأن أجسامهم نقيت من الفضول ووصلوا بحدة الذهن إلى كل معنى معقول. وصار المنطق الذى بان به غيرهم بالاستخرج مركوزاً فى أنفسهم من غير دلالة عليه: بأسماء موضوعة وصفات متميزة . لسرعة الذهن، وجودة القريحة ونرى من هذا : أنه يثبت للعرب أن الحكمة جرت على ألسنتهم . وأنهم موصوفون بحدة الذهن . والبديهة الحاضرة. وان المعنى الجيد يسارع الى خواطرهم بالوحى . والاشارة السريعة. لجودة قريحتم .

وكل تلك الصفات تضعهم فى المرتبة الأولى من الخطابة.

وقد قال الجاحظ بمثل ذلك فى شأن العرب ومكانتهم بين سائر الأمم فى الخطابة :- وجملة القول: إنا لا نعرف الخطب إلا للعرب. والفرس فأما الهند فإنما لهم معان مدونة . وكتب مخلدة لا تضاف إلى رجل معروف ولا إلى عالم موصوف . وإنما هى كتب متوارثة. وآداب على وجه الدهر سائرة

مذكورة . ولليونان فلسفة . وصناعة منطق.وكان صاحب المنطق نفسه بَكِيَّ اللسان . غير موصوف بالبيان . مع علمه بتميز الكلام وتفصيله ومعانيه وبخصائصه. وهم يزعمون أن جالينوس[305] كان أنطق الناس (في عصره) ولم يذكروه بالخطابة[306]. ولا بهذا الجنس من البلاغة.

وفى الفرس خطباء إلا أن كل كلام للفرس . وكل معنى للعجم . فإنما هو عن طول فكرة.وعن اجتهاد رأى.وطول خلوة. وعن مشاورة ومعاونة.وعن طول التفكر.ودراسة الكتب . وحكاية الثانى علم الأول.وزيادة الثالث فى علم الثانى. حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم.

وكل شئ للعرب فإنما هو بديهة وارتجال . وكأنه إلهام . وليست هناك معاناة ولا مكابدة . ولا إجالة فكر ولا استعانة. وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام إلى رجز يوم الخصام أو

[305] - كان إمام الأطباء فى عصره . ورئيس الطبيعيين فى وقته وكان بعد المسيح بنحو مائتى عام . وكان يغزو مع ملوك روما لتدبير الجيش . ويفهم من تاريخه انه دخل مصر وبلاد النوبة . وله مؤلفات كثيرة فى الطب والفلسفة . ذكرها ابن النديم فى الفهرست. والقفطى فى إخبار العلماء بأخبار الحكماء.

[306] - لكن القفطى ذكر فى صفحة ٨٦ من كتابه:- أن جالينوس كانت له بمدينة رومية مجالس مقامية خطب فيها واظهر من علمه بالتشريح ما عرف به فضله. وبان به علمه- وقال:- وكان جالينوس عالما بطريق البرهان خطيبا وله كتاب ناقض به الشعراء . وكتاب فى لحن العامة.

حين يمتح[٣٠٧] على رأس بئر. أو يحدوا ببعير، أو عند المقارعة أو المناقلة، أو عند صراع أو فى حرب. فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب. وإلى العمود الذى إليه يقصد . فتأتيه المعانى أرسالاً[٣٠٨]. وتنثال عليه الألفاظ إنثيالاً[٣٠٩] .

ثم لا يقيده على نفسه. ولا يُدَرِّسه أحداً من ولده. وكانوا أميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكلفون. وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر . وهم عليه أقدر . وله أقهر.

وكل واحد فى نفسه أنطق . ومكانه من البيان أرفع. وخطباؤهم للكلام أوْجَد والكلام عليهم أسهل وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ. ويحتاجون إلى تدارس، وليس هم كمن حفظ علم غيره. واحتذى على كلام من كان قبله. فلم يحفظوا ما علق بقلوبهم . والتحم بصدورهم . واتصل بعقولهم . ومن غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب..........

ونحن – أبقاك الله – إذا ادَّعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز.

---

[٣٠٧] - من متح الدلو. وبها: جذب: رشاءها- ومتح الماء: نزعه واستخراجه- المعجم الوسيط صـــ٨٥٢

[٣٠٨] أفراجا

[٣٠٩] - تتوالى

ومن المنثور والأسجاع . ومن المزدوج وما لا يزدوج فمعنى العلم أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب والسبك و النحت الذى لا يستطيع أشعر الناس اليوم . ولا أرفعهم فى البيان، أن يقول مثل ذلك إلا فى اليسير . والنَّبْذِ [٣١٠] القليل [٣١١].

ويفهم من هذا الكلام : أن الجاحظ يقرر أن العرب فى أعلى مراتب الفصاحة والبيان بين الأمم . وأن خطباء العرب فى الطبقة الأولى بين خطباء الأمم . وأن الخطابة العربية قبل الإسلام كانت مزدهرة لتوفر كل العوامل التى تؤدى إلى ازدهارها من الحرية واللسن . وكثرة الخطباء............الخ [٣١٢]

مكانة الخطيب العربى فى الجاهلية:-

لقد تبوأ الخطيب العربى قبل الإسلام مكانة مرموقة جعلته ليس واحداً من عامة الناس أو رجلاً عادياً بل زعيم قبيلته أو بطلها المُقدّى . أو حكيمها المبجل . أو قاضيها المبرم.

[٣١٠] - النبذ : الشىء القليل

[٣١١] - البيان والتبيين ج٣ ص ٢٧-٢٩

[٣١٢] - راجع صفحة ١٢٠ من هذا البحث

، ولسانه الناطق عند المفاخرة والمنافرة والمناظرة. فإذا قال : يسمع . وإذا دعا : يجب . وإذا أرشد : يسترشد به.

فكأن قوله التنزيل . حتى بلغ من شرف الكلمة ومكانتها عندهم أن تعلق فى أقدس مكان . وأعز بنيان ألا وهو الكعبة المشرفة.

ولذا كان الخطيب العربى قبل الإسلام: من أَسَدَّ العرب رأياً وأحكمهم تجربة. وأبعدهم نظراً . فرجاحة الفكر أولى مميزات الخطيب العربى فى قومه . فأكثم بن صيفى أحكم تميم . وقس بن ساعدة من أقوى أهل الفكر عند العرب . وكعب بن لؤى شيخ كنانة فى عصره . وعبد المطلب بن هاشم زعيم قريش وأنبلها . وكل أولئك كانو خطباء[٣١٣] .

- كما يظهر مكانة الخطيب العربى بين قومه . أنه هو الذى يتقدم وفودهم عند الدخول على الملوك . أو أولياء الأمور فيهم .

- فالخطيب العربى قد جمع مع الفصاحة والبيان . قوة الشخصية ورفعة المكانة . وقد أوضح المؤرخون والكتاب مكانة الخطيب بالنسبة لغيره من الأدباء.فقال أبو عمرو بن

---

[٣١٣] - الخطابة : أبو زهرة صـ ٢٣٦

العلاء : كان الشاعر فى الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم . ويفخم شأنهم ويهول على عدوهم ومن غزاهم ، ويُهَيِّب من فرسانهم . ويخوف من كثرة عددهم . ويهابهم شاعر غيرهم . فيراقب شاعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة . وتسرعوا إلى أعراض الناس . صار الخطيب عندهم فوق الشاعر[٣١٤].

وقال الجاحظ: كان الشاعر – فى الجاهلية – أرفع قدراً من الخطيب ، وهم إليه أحوج لرده مآثرهم عليهم، وتذكيرهم بأيامهم. فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدرا من الشاعر[٣١٥].

ولا عجب فيما روى عن مكانة الخطيب فى الجاهلية . فكان ذا مكانة عظيمة. خاصة فى عصر شاعت فيه الأمية وسادت الحياة القبلية ، وكان أحوج ما يكونون إلى من يأخذ بيدهم. ويهبهم من فكره وخياله ما يستطيعون فهمه وإدراك معناه. بعكس الشاعر الذى كان يخفى فى باطنه من المعانى

[٣١٤] - البيان والتبين جـ١صـ٢٤١
[٣١٥] - السابق جـ٤صـ٨٣

والأخيلة أكثر مما يظهر فى معانى كلماته ألفاظه ونظمه...........

وكثيراً ما حرص الشاعر فى الجاهلية على أن تكون له الصدارة فى قومه إذا خطب ونظم[٣١٦].

الفرق بين الخطابة عند العرب وعند غيرهم:-

باستعرض كتب التاريخ والأدب فى الحضارات المجاورة للأمة العربية منذ فجر التاريخ .نجد أنه كان لليونان والرومان خطابات واسعة. وكذلك كانت للمصريين . ولا زالت مكتوبة حتى الآن بالمعابد المصرية القديمة باللغة الهيروغليفية. وكذلك كان للآشوريين والبابليين خطابة[٣١٧]. وأكثر هذه الشعوب خطابة مشهورة هم اليونان والرومان والعرب.ويمكن إجمال مايميز خطابة العرب عن غيرهم من اليونان والرومان فى:-

أولاً:- إن خطباء اليونان والرومان كانوا لا يرتجلون بل كانوا يعدون الخطبة إعداداً دقيقاً ، فالخطيب الأثينى مهما تبلغ ثقته بنفسه لا يجرؤ على الوقوف موقف الخطيب. قبل أن ينظر

[٣١٦] - فن الخطابة :د/ عبد الرحيم زلطص ٦٤
[٣١٧] - السابق ص ٤١

نظرة عميقة فيما سيلقيه. قبل إلقائه .خشية النقد المرّ الصادر عن سامعين ذوى أفهام ثاقبة ، ونظرات فاحصة كاشفة.

- وكان شيشرون الرومانى يهذب خطبه ويتمرن على إلقائها قبل التقدم لإلقائها على الجماهير . حتى إنه فى سن الستين قبل أن يقتل كان يمرن نفسه على الإلقاء.

ولا يمنع هذا من أن يكون بينهم مرتجلون ، ولكن كانوا أقل عدداً.

أما خطباء العرب فقد كانوا لأميتهم . ولتعويلهم فى بيانهم على اللسان وحده مرتجلين.تحضيرهم فيما بين الجنان واللسان. يقول فيهم الجاحظ:- كانوا أميين لا يكتبون . ومطبوعين لا يتكلفون. وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر . وهم عليه أقدر . وله أقهر.....[318]

ثانياً:- إن الخطابة عند العرب أقدم من الناحية الفنية والحيوية,وشديدة الصلة بالأدب . وأقرب إلى الحس والوجدان.

أما عند اليونان – وخاصة إمامهم أرسطو- فإنها قريبة من الجفاف العلمى وعناء الفلسفة، كما أنها بعيدة عن حيوية العاطفة. ومرونة الشعور. بمعنى أن الخطابة عند أرسطو: علم

[318] - الخطابة : أبو زهرة صـــ والبيان والتبيين جـ٣صـ٢٧

بحث . بل هى جزء من المنطق الذى مداره على الحق والبرهان . لا على الشعور والوجدان .

- كما أن الخطابة عند أرسطو ليست أدباً . ولا قريبة منه . بل هى علم له قواعده وأصوله حتى إن ابن سينا فى كتابه الشفاء. برر صنيع أرسطو.و من سار على نهجه قائلاً:-

إن الحكماء قد أدخلوا الخطابة والشعر فى أقسام المنطق لأن المقصود من المنطق أن يوصل إلى التصديق. فإن أوقع التصديق يقيناً . فهو البرهان . وإن أوقع ظناً . أو محمولاً على الصدق فهو الخطابة[٣١٩].

وبالتالى يختلف الإقناع المنطقى عن الإقناع الخطابى اختلافاً كبيراً.فبينما يعتمد المنطق فى الإقناع على الأدلة العقلية والبراهين المادية. نجد الخطابة تعتمد فى إقناعها وبلوغها غايتها على إثارة الشعور . وتحريك الوجدان فى نفوس السامعين وقلوب المخاطبين..

أهمية خطابة العرب قبل الإسلام للخطيب المعاصر

[٣١٩] - الحجاج: حياته وخطابته: على صافى حسينص ـــ٦ والخطابة: د/محمود رسلان صـــ٣

إن العرب منذ أقدم عصورهم- ولا يزالون – لهم نظرات صائبة وآراء حكيمة تفيد الإنسان المعاصر – خاصة الخطباء- فى كل ما يطرأ عليه من مواقف تشبه مواقفهم التى مروا بها.

وخطب الجاهليين ومحاوراتهم . ووصاياهم كلها مما يستعين به الخطيب المعاصر . ويجد فيها مدداً واسعاً بالرأى والفكر. وبالتعبير والبلاغة . يستفيد به فى دراسته النظرية . وحياته العملية التطبيقية.

وما ذلك إلا لأن خطباء هذا العصر الذهبى قد نهضوا بخطابتهم نهضة كبيرة جداً. ولذلك لم يكن غريباً أن يستمع النبى صلى الله عليه وسلم إلى خطابة بعضهم. فيقول صلى الله عليه وسلم – إن من البيان لسحراً[320]..!!

ولم يكن هذا البيان الساحر مقصوراً على هذا الخطيب الذى استمع إليه النبى صلى الله عليه وسلم. بل كان شيئاً عاماً بين الخطباء الجاهليين جميعاً . إذ ذهبوا مذهب التجويد والتحبير حتى يستميلوا الأسماع ويخلبوا الألباب[321].

---

[320] صحيح الترمذى جـ٦ صـ١٧٥ والبيان والتبيين جـ١ صـ٣١

[321] - الفن ومذاهبه فى النثر العربى صـ٣٨ وفن الخطابة : زلط صـ٦٢

الفصل الخامس

الخطابة فى صدر الإسلام

لقد كان للخطابة دور فعّال فى عصر صدر الإسلام. لأنها كما كان حالها فى الجاهلية يعتمد عليها فى المواقف الجادة والهامة ، بخلاف الشعر الذى يعتبر ترفاً عقلياً بالدرجة الأولى . كما أن الخطباء هم الذين يستطيعون أن يبينوا ويوضحوا كل ما يهم المجتمع من آمال وآلام بالأدلة المقنعة المستميلة. وهذا بخلاف الشعراء الذين يثيرون العواطف والأحاسيس إثارة قد تكون محدودة زماناً ومكاناً وإنساناً وشأناً. دون تفكير فيما أثير المستمع من أجله. كما أن ميدان الخطابة واسع جداً. لدرجة أن يشترك فيه المستمع مع الخطيب. ويتحاورا من أجل الوصول إلى الأمثل فى موضوع الخطبة و ما يتضمنه من ترغيب وترهيب. أو آمال وآلام. وهذا بخلاف الشعر الذى يقتصر فيه على ما يقوله الشاعر دون تدخل من المستمع إلا إذا كان قديراً على قول الشعر.

وإذا كان عرب الجاهلية قد عنوا بالشعر أكثر من الخطابة.

فقد تغيرت حالهم بمجيء الإسلام الحنيف ، وأصبحت عنايتهم بالخطابة أكثر من عنايتهم بالشعر. إذ وجدوا فى القرآن والسنة مادة زاخرة بالمعانى والأفكار والألفاظ ، التى تجعلهم خطباء أكثر منهم شعراء. واحتاج المجتمع الجديد إلى دعاية واسعة لشرح أصوله ومبادئه وأحكامه وتوجيهاته التى كانت فى غاية الأهمية والخطورة .فى حياة المجتمع الجديد.

إذ لم يقف أثرها عند ترك عبادة الأوثان . وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، بل تغيير كامل فى كل العادات والتقاليد ومظاهر الحياة المختلفة التى نهجوا عليها وألفوها سنين عديدة – مع مباينتها للفطرة السليمة والأخلاق القويمة- والتى كانوا يتغنون بها فى حاضرهم وباديهم. والتى كانت هدفا من أهداف الشعر الجاهلى ، لذلك خفت صوت الشعر بقضاء الإسلام على ما كان مخالفاً لمبادئه وأحكامه . وقامت الخطابة بعبء تبليغ الدعوة الإسلامية .وشرح أحكامها. مماكان سبباً فى قوة الخطابة. وظهور كثير من الخطباء اللسن الفصحاء.

وقد نهجت الخطابة منهج القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من حيث وضوح الألفاظ وسهولتها والبعد عن الغريب

وإرسال الصور البيانية المواتية دون تكلف . وسوق الأمثال السائرة . والحِكَم القاطعة ، والمحاورات المقنعة . كلما تطلب الخطاب شيئاً من ذلك.

- كما نهجت الخطابة منهج القرآن والسنة من حيث :- العناية بالمعانى التى جاء بها الإسلام الحنيف مما يتصل بأمور العقيدة ، أو بعلاقة الأفراد بالمجتمع.

أو بالمجتمعات الأخرى. أو بالحقوق والواجبات المتبادلة بين الأفراد وبعضهم البعض. أو بينهم وبين ولاة أمورهم . وذوى الرأى فيهم.

وهذا يؤكد بكل وضوح أن الخطابة لن تكون لها قِيمَةٌ قَيِّمَة إلا إذا ارتبطت بهدف سام جليل . وخلق فاضل نبيل وعَبَّرت عن الفضائل.

مستميلة النفوس للتمسك بها والاستشهاد فى سبيلها. وهذا هو شأن الإسلام فى مجال الخطابة التى حررها من حمية الجاهلية لتسير بالحياة والأحياء فى الإتجاه الصحيح الذى يسعد الناس بالحياة والأحياء وهذا هو محور الخلاف بين الإسلام والجاهلية فى كل زمان ومكان وشأن وإن شئت

المقارنة بين مارسمه الإسلام من مثل أعلى فى الحياة.وما رسمته الجاهلية من ذلك. فاقرأ قول الله تعالى:-

" ليس البِرَّ أن تولوا وُجوهكُم قِبَلَ المشرقِ والمغربِ ، ولكن البر مَنْ آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة . والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس . أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون "[٣٢٢]

ثم اقرأ ما جاء فى معلقة طرفة بن العبد:-

إذا القوم قالوا : من فتى؟ خِلتُ أننى

عُنيتُ فلم أكسل ولم أتبلد

أحلت عليها بالقطيع فأجذمت

وقد خبَّ آل الأمعز المتوقدِ[٣٢٣]

---

[٣٢٢] - سورة البقرة آية ١٧٧

[٣٢٣] - أحلت : وثبت.والقطيع : السوط . أُجزمت : أسرعت. وخبت : ارتفع . والآل: السراب.والأمعز: الأرض الغليظة التى فيها حصى . والمتوقد : المشتعل .فهو يقول: وثبت على ناقتى بالسوط فأسرعت وقد ارتفع آل هذه الصحراء.

فزالت كما زالت وليدة معشر

وترى ربها أذيال سحل ممدَّدِ [٣٢٤]

ولست بحلال التلاع مخافة

ولكن متى يسترفد القوم أرْفدِ [٣٢٥]

وإن تبغنى فى حلقه القوم تلقنى

وإن تقتنصنى فى الحوانيت تصطد [٣٢٦]

متى تأتنى أصبحك كأسا روية

وإن كنت عنها ذا غنى فاغنَ وازْدَدْ

وإن يلتق القوم الجميع تلاقنى

إلى ذروتى البيت الرفيع المصمد

نداماى بيض كالنجوم وقينة

---

[٣٢٤] - زالت: تبخترت. الوليد: الفتية. والسحل: الثوب من القطن. فهو يقول: إن ناقته تتبختر فى مشيتها كالفتاة تمشى أمام سيدها تتبختر وتجر أزيالها

[٣٢٥] - التلاع هنا: الأرض المنخفضة. وكنى بها عن البخيل، لأنه يسير حيث لا يراه أحد. ويسترفد يطلب منهم الرفادة أى المعونة.

[٣٢٦] - حلقة القوم: مجلس أشرافهم. والحوانيت: بيوت الخمارين.

تروح علينا بين بُرد ومجسد ٣٢٧

إلى أن يقول:-

فلولا ثلاث هن منْ عيشة الفتى

وَجَدِّك لم أحفِل متى قام عُوَّدى [٣٢٨]

فمنهن سبقى العاذلات بشربة

كمُيْت متى تُعلَ بالماء تزبد ٣٢٩

وتقصير يوم الدَّجن والدجن معجب

ببهكنة تحت الخباء المعمد ٣٣٠

كأن البرين والدماليج علقت

على عشر أو خِروَع لم يخضد [٣٣١]

وكَرِّى إذا نادى المضاف مجنباً

---

[٣٢٧] - الندامى : الأصحاب على الخمر . والقينة: الجارية المغنية. والبرد : الأبيض. والمجسد: المصبوغ بالجساد وهو الزعفران

[٣٢٨] عوَّدى: زوَّارى

[٣٢٩] - العاذلات: اللائمات. والميت جمع ميت

[٣٣٠] - الدجن: الغيم . والبهكنة: حسناء الخلق

[٣٣١] - البردين: الخلاخيل . والخروع: كل نبات قصيف ريان. ولم يخضد: لم يكسر

كسيد المضافة السورة المتورد[٣٣٢]

هذا هو المثال الأعلى للحياة الجاهلية: فخر بالنجدة وفخر بالكرام. وفخر بمجالسة عِلْيَةِ القوم. وفى حانات الخمر. وَتَمَتُّعٌ بالشراب حوله الندامى و القِيَانِ. وهذا هو كل شىء فى الحياة فى تصور أهل الجاهلية وفى كل زمان ومكان.

٢- وقد عبر أصدق تعبير عن الفرق بين الحالين: الجاهلية والإسلام ما رواه كتب السيرة عن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه حينما قال للنجاشى[٣٣٣] مُبَيِّناً حالهم:- أيها الملك : كنا قوماً أهل جاهلية. نعبد الأصنام ونأكل الميتة. ونأتى الفواحش، ونسيء الجوار. ويأكل القوى فينا الضعيف، حتى بعث الله تعالى إلينا رسولاً منا . نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه . فدعانا إلى الله تعالى لنوحده ونعبده . ونخلع ما كنا نعبده نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان.

وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة وصلة الأرحام. وحسن الجوار . والكف عن المحارم والدماء. ونهانا عن الفواحش. وقول الزور. وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات.

[٣٣٢] - المضاف : الملجأ والمجنب. المنحنى من الهزال . والسيد: الذئب والغض: نوع من الشجر. والسورة: الوثبة. والمتورد: الوراد. راجع فجر الإسلام : أحمد أمين ص ٧٧-٧٨

[٣٣٣] - يوم أن هاجر إلى الحبشة فى السنة الخامسة من البعثة النبوية الشريفة.

وأمرنا أن نعبد الله ونوحده . لا نشرك به شيئاً.فصدقناه وآمنا به. واتبعناه على ما جاء به من الله تعالى . فعبدنا الله وحده . فلم نشرك به شيئاً.وحرمنا ما حرم علينا . وأحللنا ما أحل لنا.فعدا علينا قومنا. فضربونا وفتنونا عن ديننا. ليردونا عن عبادة الله تعالى . وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث . فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا.وحالوا بيننا وبين ديننا . خرجنا إلى بلادك . واخترناك على من سواك . ورغبنا فى جوارك . وَرَجَوْنَا أن لا نظلم عندك [٣٣٤].

وهذا أصدق تعبير عما كان يسود مجتمع الجاهلية من قيم وعقائد . تتنافى مع الفطرة السليمة، والفكر المستقيم.

و من خلاله يظهر الفارق بين الجاهلية والإسلام .

٣- عقد المستشرق- جولد تسيهر- فصلاً عن نقطة بين الإسلام وما كان عليه الحال فى الجاهلية. عنونه- بالدين والمروءة- وتلخص هذا الفصل فى أن الإسلام رسم للحياة مثلاً أعلى،غير المثل الأعلى للحياة فى الجاهلية. وهذان المثلان لا يتشابهان. وكثيراً ما يتناقضان.

---

[٣٣٤] - السيرة النبوية لابن هشام جـ١صـ٣٢٦

فالشجاعة الشخصية . والشهامة التى لا حدّ لها . والكَرَم إلى حد الإسراف . والإخلاص التام للقبيلة.والقسوة فى الانتقام . والأخذ بالثأر ممن اعتدى عليه.أو على قريب له أو قبيلته . بقول أو فعل . هذه هى أصول الفضائل عند الوثنيين فى الجاهلية .

أما فى الإسلام : فالخضوع لله . والانقياد لأمره. والصبر وإخضاع منافع الشخص ومنافع قبيلته لأوامر الدين . والقناعة وعدم التفاخر والتكاثر.وتجنب الكبر والعظمة. هى المثل الأعلى للإنسان فى الحياة[335].

٤- ويقول جورجى زيدان فى حديثه عن التغيير الذى أحدثه الإسلام فى العرب:[336]- فلما جاء الإسلام كان فى جملة ما بَدّلَهُ من أحوالهم: أنه جمع كلمتهم. وصاروا يداً واحدة على اختلاف أنسابهم ومواطنهم. وبعد أن كان اليمنى يفاخرالحجازى. والمضرى يفاخر الحميرى.ونحو ذلك من مفاخرات القبائل والبطون والأفخاذ. جاء الإسلام فجمعهم تحت راية واحدة باسم واحد·هو-الإسلام- فقال الرسول صلى الله عليه وسلم. فى خطبة حجة الوداع :- أيها

[335] - فجر الإسلام صـــ٧٦
[336] - تاريخ آداب اللغة العربية جـ١ صـــ١٨٩

الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد . كُلُّكُمْ لآدم وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم. ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى[337].

وقد كانت الخطابة فى عصر صدر الإسلام أصدق ما يعبر عن هذا المثل الأعلى، كما كان لها الدور البارز والفعال فى تعميق هذه المبادئ والقيم فى ضمائر المستمعين، ونزع ما يخالفه من عقولهم وقلوبهم. ويمثل ذلك خطبتان مشهورتان من خطيبين مشهورين خطبا بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم. وقد مثل أحدهما نهج الجاهلية فى خطبته. ومثل الآخر نهج الإسلام الحنيف. روى ابن هشام فى السيرة: قدم وفد بنى تميم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء حجراته: أن اخرج إلينا يا محمد. فآذى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم من صياحهم. فخرج إليهم فقالوا: يا محمد جئنا لك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا. قال: قد أذنت لخطيبكم فليقل. فقام عطارد ابن الحاجب فقال: الحمد لله الذى له علينا الفضل والمن وهو أهله. الذى جعلنا ملوكًا. ووهب لنا أموالاً عظاماً. نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق، وأكثره عدداً . وأيسره

---

[337] - سيرة بن هشام جـ٤ صـ١٨٣

عدة. فمن مثلنا فى الناس وأولى فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا.ولو نشاء لأكثرنا الكلام. ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا. وإنا نعرف بذلك . أقول هذا لتأتوا بمثل قولنا أو أمر أفضل من أمرنا . ثم جلس!!![٣٣٨]

إن هذه الخطبة لعطارد بن الحاجب يمثل فيها وجهة نظر الجاهلية المدفوعة بعامل التفاخر بالأحساب والأنساب والمكاثرة بالعدد والعدة والأموال . حتى وصل به حال التفاخر إلى تحدى جمهور المستمعين فى أن يبينوا له مثله فى الناس فقال – فمن مثلنا فى الناس؟!-

وإذا كان هذا الخطيب قد يبدأ خطبته بحمد الله تعالى . فهو الحمد الراجع إلى خصوصيتهم وتميزهم وتفردهم بكل الفضائل دون سائر الناس الذين يشكلون الذنب. بينما تمثل قبيلة عطارد الرأس المرفوع.وهذا الأسلوب الخطابى .وهؤلاء الخطباء يقومون بمهمة جاهلية تتمثل فى تخدير الشعوب وتنويمها:

سواء سبحوا بحمد الطغاة . أم سبحوا بحمد الشهوات. فأما حين يسبحون بحمد الطغاة فهم يزيفون الواقع على

---

[٣٣٨] - السيرة النبوية جـ٤ صـ١٤٨

الشعوب ويخفون عنها شناعة الطغيان وقبحه. ويصدونها عن الثورة عليه. أو الوقوف فى وجهه..

وأما حين يسبحون بحمد الشهوات: فهم يخدرون مشاعر الشعوب ويستنفذون طاقاتهم فى الرجس والدنس. ويدغدغون غرائزهم .... فتظل مشغولة بتلك الدغدغة. لا تفكر فى شأن عام ولا تحس بظلم واقع[٣٣٩] وعندما انتهى خطيب الجاهلية من خطبته. قام خطيب المثل العليا الذى يمثل وجهة نظر الإسلام. فأجاب خطيب الجاهلية. حين أذن النبى صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس بن الشماس . قائلاً له:- قم فأجب الرجل فى خطبته . فقال ثابت:- الحمد لله الذى فى السموات و الأرض خلقه. وقضى فيهن أمره . ووسع كرسيه علمه. ولم يكُ شيئاً قط إلا من فضله .

ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً. واصطفى من خير خلقه رسولاً. أكرمهم نسباً. وأصدقهم حديثاً. وأفضلهم حسباً. فأنزل عليه كتابه. وائتمنه على خلقه. فكان خيرة الله من العاملين.

---

[٣٣٩] - الخطابة فى مواكب الدعوة : د/ محمود عمارة صـ ٤١٧

ثـم دعـا النـاس إلـى الإيمـان بـه. فـآمن برسـول الله المهاجرين من قومه وذوى رحمه. أكرم الناس حسباً. و أحسن النـاس وجوهاً. وخير النـاس فعالاً. ثم كـان أول الخلـق إجابـة. واستجاب لله حين دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن.

فنحن أنصـار الله. ووزراء رسوله. نقاتـل النـاس حتـى يؤمنوا بالله. فمن آمن بالله ورسوله منع منا مالـه ودمـه. ومـن كفر جاهدناه فى الله أبداً. وكان قتله علينـا يسيراً. أقول قولى هذا وأستغفر الله لـى وللمؤمنين والمؤمنـات . والسلام عليكم [٣٤٠]

فهذا الخطيب يختلف عن سابقه تماماً. لأنـه تجرد مـن نزعة الجاهليه التى تجعلـه يفتخر بـالكثرة فـى العدد والعدة. ويجعلهـا أكبر همـه. ومبلـغ علمـه. حتـى يتحدى النـاس أن يـأتوا بمثله !!! فمن مثلنا فى الناس ؟!- والتزم بالإسلام قلباً وقالباً إذ يبدأ خطبته بحمد الله الذى بيده مقاليد كل شئ. فكل شىء بعلمه. ومن فضله !! ثم يفتخر بشرف الرسالة والرسول صلى الله عليه وسلم. وبشرف سبق المهاجرين وسبق الأنصـار إلـى الإستجابة لـداعى الله. ومنـا صرته حتـى تكـون كلمـة الله هـى العليا. ثم يستغفر الله له وللمؤمنين والمؤمنات. وبعد أن انتهى

[٣٤٠] -السييرة النبوية لابن هشام ج-٤ ص١٤٨

الخطيبان ظل النبى صلى الله عليه وسلم وفيا لمنهج الإسلام الذى يمثله ثابت بن قيس. يرعاه. وينميه.

فى الوقت الذى يقضى فيه على منهج الجاهلية وأصحابه. وقد سار الصحابه الكرام على منهج النبى صلى الله عليه وسلم فى القضاء على نهج الجاهلية. وتشجيع النهج الإسلامى الحنيف.

ويمثل هذا موقف أمير المؤمنين عمر من الحطيئة عندما هجا الزبرقان بن بدر. وخرج بالهجاء عن النهج الإسلامى. فحاكمه الفاروق. وحكم عليه بما جعله عبرة لكل من يخالف نهج الإسلام ويحالف الجاهليه.

فروى أن الفاروق حبس الحطيئة لأنه كان يقول الهُجْرويمدح الناس ويذمهم بما ليس فيهم. ثم أطلقه. فَلَمَّا وَلَّى ناداه فرجع. فقال عمر:كأنى بك يا حطيئة عند فتى من قريش. قد بسط لك نمرقة [٣٤١] وكسرلك أخرى ثم قال: غننا ياحطيئة. فطفقت تغنيه بأعراض الناس.

قال زيد بن أسلم: ثم رأيت الحطيئة يوماً بعد ذلك عند عبيد الله بن عمر. قد بسط نمرقة وكسر له أخرى. ثم قال:

---

[٣٤١]- النمرقة: الوسادة

تُغنّينا يا حطيئة. وهو يغنّيه. فقلت: ياحطيئة: أَمَا تذكر قول عمر؟! ففزع وقال: رحم الله ذلك المرء. أما لو كان حيا ما فعلنا هذا !![342]

فالإسلام كما ترى : كل فضائله لتربية النفس وتزكيتها. وجعل العربى وكل مسلم صالحاً للائتلاف مع غيره.

وبعد أن كانت كل فضائل الإنسان فى الجاهلية شخصية. وجهه الإسلام إلى الفضائل الاجتماعية ليلتئم مع سواه: وبعد أن كانت الشجاعة فى المبارزة والمناضلة للمفاخرة . صارت فى الجهاد فى سبيل الله لرفع كلمته ، وبعد أن كان الجود ليملأ المعطى ماضيه فخراً، صار فى إمداد المجاهدين. وسد حاجة المعوزين. وإعطاء السائل المحروم ابتغاء مرضاة الله. وحناناً وعطفاً على بنى الإنسان. فتغلغل الدين فى كل شىء فى هذا العصر!!

وصفوة القول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما وصفه به بعض المستشرقين:- والحق ما شهدت به الأعداء-

امتاز بوضوح كلامه.ويسر دينه.وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول.ولم يعهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس وأحيا

[342] - فجر الإسلام ص ٨٠

الأخلاق. ورفع شأن الفضيلة فى زمن قصير.كما فعل محمد[٣٤٣] صلى الله عليه وسلم.

ولا يظن ظان أن التزام الخطابة ، أو الأدب عموماً مجال من مجالات الحياة. لا يضيق دائرته بل تبقى الفضيلة ترجماناً لمشاعر الإنسان وتطلعاته فى جميع مواقفه.

وقد كانت الخطابة أكبر وسيلة للدعوة إلى الإسلام ومبادئه. وقدمته للناس فى ثوب مؤثر. وأسلوب نفاذ أخاذ، يخلب الألباب. وقد رأى العرب- شعراء وخطباء- فى بلاغة القرآن الكريم وروعة أسلوبه مابهرهم. وأثار إعجابهم. فانساقوا إلى محاكاته وتقليده. وبلغ من افتتان العرب بالقرآن وإعجابهم به، أن امتنع بعضهم عن قول الشعر!! كما فعل لبيد ابن ربيعة أحد أصحاب المعلقات السبع على جوف الكعبة.

فإنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وفد من قومه. وأسلم وحسن إسلامه واستغنى بالقرآن وقراءته عن الشعر الذى نبغ فيه. حتى إنه لم يصح عنه فى أربعين سنة قضاها فى الإسلام إلا بيت واحد:

[٣٤٣] - تاريخ الإسلام د/ حسن إبراهيم حسن جـ١ صـ٢٠٢.

ما عاتب الحر الكريم كنفسه

والمرء يصلحه الجليس الصالح

وهو فى رواية الأغانى:

الحمد لله إذ لم يأتنى أجلى

حتى لبست من الإسلام سربالاً

وكان إذا سئل عن شعره . تلا سورة من القرآن . وقال: أبدلنى الله خيراً منه [٣٤٤] ، إذاً فأثر الإسلام واضح فى أنه نقل العرب نقلاً جديداً وَنَمَّى مواهبهم تنمية مهذبة نقية. ومن هذه المواهب الخطابةالتى كانت أهم وسائله الدعوية .

متى بدأت الخطابة فى الإسلام ؟!

بدأت الخطابة فى عصر صدر الإسلام؛ بعد بعثة النبى محمد صلى الله عليه وسلم. مباشرة حيث اتخذها وسيلة لنشر الدعوة فى مكة خلال عشرة أعوام .

[٣٤٤] - ترجمة لبيد فى طبقات الشعراء لابن سلام. وتاريخ الإسلام جـ١صـ١٩٢

أسلوب خطابته فى مكة:-

ظل النبى صلى الله عليه وسلم يدعو فى مكة بالحكمة والموعظة الحسنة. والمجادلة بالتى هى أحسن. ويتودد إلى أهل مكة بأسلوبه المقنع المستميل. لعله يبلغ الهدف من دعوته . فيجيبوا داعى الله . وتتأتلف قلوبهم . وتتوحد صفوفهم. بعد أن كانوا أشتاتاً متفرقين. ضالين مضللين.

أساس خطابته فى مكة:-

كان الأساس الأول فى خطابته صلى الله عليه وسلم فى مكة يرتكز فى دعوته إلى وحدانية الله تعالى وإفراده بالعبادة الخالصة وترك عبادة الأوثان. وتأكيده على أن لهذا الكون إلهاً يديره ويدبره وفق سنن كونية لا يعلم كنهها إلا هو سبحانه . وأن هذا الإله هو الخالق للكون والإنسان.

ولم يخلقهم عبثاً.ولم يتركهم سدى.وإنما خلقهم والكائنات الأخرى لعبادته وتوحيده- و ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون[345] - وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم[346] - أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا

---

[345] - سورة الذاريات آية ٥٦

[346] - سورة الإسراء آية ٤٤

لا ترجعون. فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم[347] - ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون[348] - ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثيرُ من الناس وكثيرٌ حق عليه العذاب. ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء.[349]

وإن الله تعالى قد سخر كل هذا الكون بكل ما فيه لخدمة الإنسان وسعادته, فى كل المجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية..........الخ .

وأن هذه الحياة التى يحياها الإنسان تنتهى بموته . لتبدأ حياة أخرى يجازى فيها كل إنسان بما عمل فى حياته الدنيا- فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره[350] .

---

[347] - سورة المؤمنون آية ١١٥،١١٦
[348] - سورة النحل أية ٤٩
[349] - سورة الحج آية ١٨
[350] - سورة الزلزلة آية ٧،٨

نماذج من خطبه صلى الله عليه وسلم فى مكة:-

عرفت الخطابة فى الإسلام بصفة عملية تطبيقية منذ أن خطب النبى صلى الله عليه وسلم أول خطبة له بمكة. وذلك لما أمره الله تعالى بالجهر بالدعوة فى قوله سبحانه- وأنذر عشيرتك الأقربين[٣٥١] - دعاهم النبى صلى الله عليه وسلم مرات عديدة.وفى إحدى هذه المرات خطبهم قائلاً:

الحمد لله.أحمده.وأستعينه.وأومن به . وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. ثم قال : إن الرائد لا يكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم. ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم. والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة. وإلى الناس كافة . والله لتموتن كما تنامون و لتبعثن كما تستيقظون. ولتحاسبن بما تعملوت. ولتجزون بالإحسان إحساناً. وبالسوء سوءاً. وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً، والله يابنى عبد المطلب ما أعلم شاباً جاء قومه بأفضل مما جئتكم به؟ إنى قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة.[٣٥٢]

هذه هى أول خطبة خطبها النبى صلى الله عليه وسلم بعد النبوة والرسالة فى مكة، وهذه الخطبة مع قصرها تشتمل على مبادىء الإسلام . ومحتويات الرسالة كلها بأسلوب غاية

---

[٣٥١] - سورة الشعراء آية ٢١٤

[٣٥٢] - السيرة الحلبية جـ١صـ٤٥٩

الفصاحة والبيان والحكمة وفصل الخطاب. وأهم ما تدور حوله هذه الخطبة:

١ - الدعوة إلى :-

الإيمان بالله تعالى والشهادة له بالوحدانية.

٢ - الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم. والشهادة له بالرسالة.

٣-التأكيد على عالمية الإسلام ودعوته لكل الناس عربهم وعجمهم أبيضهم وأسودهم .

٤-الإيمان باليوم الآخر بداية من الموت . ثم البعث . ثم الحساب وما يترتب عليه من نعيم فى الجنة . أو عذاب فى النار.

<u>الخطابة بعد الهجرة:-</u>

لما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة . كان للخطابة بالغ الأهمية فى توجيه المسلمين وإرشادهم لصلاح دينهم ودنياهم . خاصة وقد فرضت الجمعة وخطبتها.

والدين الإسلامى دين اجتماعى . عنى بحياة المجتمع، وتوطيد العلاقة بين الحاكم والمحكوم،على أساس التشاور . وفى هذا مجال كبير للخطابة.

كما يحرص رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم فى خطابته على وضع الحلول لكل ما يَجِدُّ من أمور تتطلبها الحياة كبيان العلاقة بين الرجل والمرأة. والجوار بين المسلم والمسلم، وبين المسلم وغير المسلم،وتحقيق العدالة والمساواة بين الناس جميعاً. وكان هناك الغزوات التى يتطلب الأمر قبلها الدعوة إلى القوة والشجاعة والتحريض على القتال. والحث على الاستبسال والصبر فى مواجهة الأعداء وشرح الخطط. كل هذا لا يكون إلا بالخطابة .

نماذج من خطبه صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة :

روى ابن إسحاق أن النبى صلى الله عليه وسلم فى طريق هجرته من مكة إلى المدينة أقام بقباء فى بنى عمرو ابن عوف يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء ويوم الخميس وأسس مسجده [٣٥٣]. ثم أخرجه الله تعالى من بين أظهرهم يوم

[٣٥٣] ـ ذكر أن الرسول "صلى الله عليه وسلم" كان أول من وضع حجرا فى قبلته ثم جاء أبوبكر بحجر فوضعه إلى حجر رسول الله ثم أخذ الناس فى البنيان وكان مسجد قباء أول مسجد بنى فى الإسلام .

الجمعة فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف فصلاها فى المسجد الذى فى بطن الوادى (وادى رانوناء) فكانت أول جمعة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين بالمدينة أو مطلقا، لأنه – والله أعلم- لم يكن يتمكن هو وأصحابه بمكة من الاجتماع حتى يقيموابها جمعة ذات خطبة وإعلان بموعظة، وماذلك إلا لشدة مخالفة المشركين له وأذيتهم إياه صلى الله عليه وسلم.[٣٥٤] وقد خطب النبى صلى الله عليه وسلم أول جمعة فى الإسلام فى بنى سالم بن عوف قائلا: الحمد لله.أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأومن ولا أكفره وأعادى من يكفره . وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة . على فترة من الرسل،وقلة من العلم، وضلالة من الناس،وانقطاع من الزمان،ودنو من الساعة. وقرب من الأجل، من يطع الله ورسوله فقد رشد،ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيدا.

وأوصيكم بتقوى الله،فإنه خير ما وصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله. فاحذروا ماحذركم الله من نفسه،ولا أفضل من ذلك نصيحة ولا أفضل

---

[٣٥٤] -السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٣٥ والبداية والنهاية لابن كثير ج٣ ص٢١٣ ٢١٤

من ذلك ذكرى.وإنه تقوى لمن عمل به على وجل ومخافة وعون صدق على ماتبتغون من أمر الآخرة.ومن يصلح الذى بينه وبين الله من أمر السر والعلانية.لاينوى بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً فى عاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت.حتى يفتقر إلى ماقدم وماكان من سوى ذلك.يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه.والله رؤوف بالعباد. والذى صدق قوله . وأنجز وعده.لا خلف لذلك فإنه يقول تعالى "مايبدل القول لدي ، وماأنا بظلام للعبيد" واتقوا الله فى عاجل أمركم وآجله فى السر والعلانية .فإنه من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا .[355] ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما .[356]وإن تقوى الله توقى مقته.وتوقى عقوبته, وتوقى سخطه.وإن تقوى الله تبيض الوجه.وترضى الرب. وترفع الدرجة.خذوا بحظكم ولا تفرطوا فى جنب الله.قد علمكم الله كتابه.ونهج لكم سبيله.ليعلم الذين صدقوا و ليعلم الكاذبين . فأحسنوا كما أحسن الله إليكم . و عادوا أعداءه. جاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم.وسماكم المسلمين . ليهلك من هلك عن بينة.ويحيى من حى عن بينة . ولا قوة إلا بالله. فأكثروا ذكر الله. إعملوا لما بعد الموت . فإنه من أصلح ما بينه

[355] - سورة الطلاق من الآية ٥.
[356] - سورة الأحزاب من الآية ٧١.

وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس . ذلك بأن الله يقضى على الناس ولايقضون عليه . ويملك من الناس ولا يملكون منه .الله أكبر ولا قوة إلا بالله الله العلى العظيم [٣٥٧]. وفى رواية أخرى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: كانت أول خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، أن قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله.ثم قال : أما بعد : أيها الناس: قدموا لأنفسكم . تعلمن والله ليصعقن أحدكم.ثم ليدعن غنمه ليس لها راعٍ.ثم ليقولن له ربه ليس له ترجمان ولاحاجب يحجبه دونه. ألم يأتك رسولى فبلغك . وآتيتك مالا وأفضلت عليك.فما قدمت لنفسك ؟ فينظر يمينا وشمالاً. فلا يرى شيئا.ثم ينظر قدامه.فلا يرى غير جهنم فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل . ومن لم يجد فبكلمة طيبة. فإن بها تجزئ الحسنة عشر أمثالها . إلى سبعمائة ضعف.والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . [٣٥٨] وفى رواية ثالثة: أحمده وأستعينه . نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له.ومن يضلل فلا هادى له. أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . إن أحسن الحديث كتاب الله . قد أفلح من زينه الله فى قلبه

---

[٣٥٧] - البداية والنهاية ج٣ ص٢١٣..

[٣٥٨] - السابق ج٣ ص٢١٤ .

وأدخله فى الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس . إنه أحسن الحديث وأبلغه . أحبوا من أحب الله . أحبوا الله من كل قلوبكم . ولا تملوا كلام الله وذكره ولا تقسى عنه قلوبكم .فإنه من يختار الله ويصطفى فقد سماه خيرته من الأعمال وخيرته من العباد،والصالح من الحديث . ومن كل ما أوتى الناس من الحلال والحرام . فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً،واتقوه حق تقاته . وأصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم . وتحابوا بروح الله بينكم . إن الله يغضب أن ينكث عهده . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.[٣٥٩]

ومن خطبه فى الحث على الجهاد فى سبيل الله بعد حمد الله والثناء عليه قال : أيها الناس : أوصيكم بما أوصانى الله فى كتابه من العمل بطاعته،والتناهى عن معصيته . ثم إنكم اليوم بمنزل أجر وذخر،لمن ذكر الذى عليه. ثم وَطَّنَ نفسه على الصبر واليقين الجد والنشاط .فإن جهاد العدو شديد كربه .قليل من يصبر عليه.إلا من عزم له على رشده . إن الله مع من أطاعه.وإن الشيطان مع من عصاه . فاستفتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد . والتمسوا بذلك ما

٣٥٩ - السابق نفسه .

وعدكم الله، وعليكم الذى أمركم به. فإنى حريص على رشدكم إن الاختلاف والتنازع والتثبيط من أمر العجز والضعف، وهو مما لا يحبه الله ولا يعطى عليه النصر. أيها الناس : إنه قذف فى قلبى أن من كان على حرام فرغب عنه ابتغاء ما عند الله غفر له ذنبه .[٣٦٠]

الملاحظ على هذه الخطبة برواياتها:

١- إن جميع الروايات تؤكد أن الخطبة فى الإسلام تبدأ بحمد الله تعالى، والثناء عليه بما هو أهله، والشهادة له بالوحدانية، ولرسوله محمد بالرسالة ، التى جاء بها على فترة من الرسل، وقلة من العلم وقرب من الساعة .

٢ - الترغيب فى طاعة الله ورسوله، والترهيب من عصيا نهما ومخالفة أمرهما .

٣- الوصية بتقوى الله . وهى أفضل ما يوصى به المسلم أخاه المسلم.

٤- التركيز على إصلاح الإنسان ما بينه بين ربه فى السر والعلن ليكون ذلك له ذكرا وذخرا فى العاجل والآجل.

٣٥٤- جمهرة خطب العرب ج١ ص١٤٩.

٥- تزيين الخطبة بالاقتباس من آى الذكر الحكيم.

٦- بيان أن الله تعالى أنزل كتابه,وشرع أحكام دينه ليحى من حى عن بينة ويهلك من هلك عن بينة .

٧- بيان أن الله تعالى سائل كل إنسان عما أنعم الله به عليه .

٨- الترغيب في الأعمال الصالحة التى تنجى الإنسان من عذاب النار .

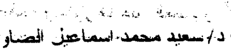
٩- التركيز على مداومة ذكر الله تعالى وحب من يحب الله.

١٠- الترهيب من نكث عهد الله تعالى لأنه يجلب غضبه ومقته.

١١- يظهر فى هذه الخطب النبوية الشريفة وغيرها.

قوة العبارة وسلامة الألفاظ,وتجنب السجع,حيث نهى عنه النبى صلى الله ه عليه وسلم ,وكثرة الاقتباس من القرآن الكريم .... الخ.

وقد سار على نهجه صلى الله عليه وسلم كل الصحابة الكرام وفى مقدمتهم الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم جميعا وأرضاهم.



الفصل السادس

الخطابة فى عهد الصحابة الكرام

مرت على الصحابة الكرام مواقف كثيرة ضربوا فيها أروع الأمثلة لفصاحة الكلام. وبلاغة القول. وفصل الخطاب. ومن أشهر هذه المواقف:

يوم السقيفة[٣٦١]

لقد بدأت أحداث هذا اليوم بوفاة النبى صلى الله عليه وسلم. فماج الناس واضطربوا حتى أخذت الدهشة من بعضهم كل مأخذ. فظن الفاروق عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يمت. وَأَهْجَرَ فى كلامه[٣٦٢] . قائلاً:- مامات رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما واعده الله كما واعد موسى[٣٦٣].

---

[٣٦١] - السقيفة هى المظلة أو السقف غير الكامل . وكانت مكاناً يجتمع فيه أهل المدينة لسمرهم ومشاوراتهم . وسقيفة بنى ساعدة التى تم فيها هذا اللقاء كانت خارج المدينة فى ذاك الوقت . ومكانها معروف الآن غرب الحرم شمالاً مكانها حديقة صغيرة مجاورة لمكتبة الملك عبد العزيز.

[٣٦٢] - أَهْجَرَ فى كلامه: أى خلط وهذى وأكثر الكلام فيما لا ينبغى . وذلك من هول ما وقع فى نفسه من هول خبر وفاة النبى صلى الله عليه وسلم. فهو لا يكاد يصدقه!!

[٣٦٣] - إشارة إلى قول الله تعالى – وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة- سورة البقرة آية ٥١ - وقوله سبحانه : وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة- سورة الأعراف من الآية ١٤٢

وليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فليقطعن أيدى ناس وأرجلهم[٣٦٤]. وفى رواية يقول: والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم.وما كان يقع فى نفسى . إلا ذاك . وليبعثنه الله فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم[٣٦٥]. وفى رواية ثالثة يقول :- إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت ولكن ربه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى . فمكث عن قومه أربعين ليلة . وإنى لأرجو أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقطع أيدى رجال المنافقين وألسنتهم يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات[٣٦٦]؟! وفجأة جاء أبو بكر الصديق رضى الله عنه حيث كان غائباً فى ماله بالسُّنْح[٣٦٧]. فجاء إلى منزل ابنته عائشة رضى الله عنها – وفيه مات النبى صلى الله عليه وسلم فكشف عن وجهه الشريف. وأكب عليه يقبله . قائلاً: بأبى أنت وأمى يارسول الله، طبت حياً وميتاً. والله لا يجمع الله عليك الموتتين. أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها. ثم خرج إلى المسجد والناس فيه. وعمر يأتى بهَجْرٍ من القول كما سبق- فرقى الصديق المنبر. فحمد الله وأثنى عليه :

---

[١٠] - العواصم من القواصم صـ ٥٧

[١١] - صحيح البخارى كتاب فضائل الصحابة

[١٢] - مسند الإمام أحمد عن انس جـ٣صـ١٩٦

[١٣] - سورة السنح منازل بنى الحارث بن الخزرج فى عوالى المدينة المنورة . بينها وبين المسجد النبوى الشريف كيلو مترين يسمى الان – حى العوالى شرقى المسجد الشريف-

بما هو أهله ثم قال:[٣٦٨] أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله . وأشهد أن الكتاب كما نزل. وأن الدين كما شرع. وأن الحديث كما حدث. وأن القول كما قال.وأن الله هو الحق المبين......... ثم قال:

أيها الناس: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات . ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت . وإن الله قد تقدم إليكم فى أمره . فلا تدعوه جزعاً.وإن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم. وقبضه إلى ثوابه. وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه . فمن أخذ بهما عرف . ومن فرق بينهما أنكر - يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط[٣٦٩].ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم . ولا يفتننكم عن دينكم . فعاجلوه بالذى تُعْجِزونه. و لا تستنظروه فيلحق بكم . ثم قرأ- وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل.أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين[٣٧٠].

---

[٣٦٨] - جمهرة خطب العرب جـ ١ صـ ١٨٠

[٣٦٩] -سورة النساء آية ١٣٥

[٣٧٠] - سورة آل عمران آية ١٤٤ - ولما قرأها الصديق رضى الله عنه خرج الناس يتلونها كأنها لم تنزل إلا ذلك اليوم- البخارى كتاب فضائل الصحابة.

ولابد لهذا الأمر ممن يقوم به.فانظروا وهاتوا آراءكم .
فقالوا : صدقت ننظر فيه.[371]

ولما هدأ الفاروق عمر رضى الله عنه . وهدأ الناس معه. بعد سماعهم هذه الخطبة من الصديق رضى الله عنه- وعاد الصديق ثانية إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم للمشاركة فى تجهيزه ودفنه- بدأ كل يفكر فيمن يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

واجتمعت الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة يتشاورون . ولايدرون ما يفعلون.وبلغ خبر ذلك الإجتماع إلى المهاجرين . فقالوا : نرسل إلي الأنصار يأتوننا؟ فقال أبو بكر: بل نمشى إليهم. فسار إليهم المهاجرون . منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح. حتى وصلوا إلى الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة . فإذا هم مجتمعون وبين ظهرانيهم رجل مُزَمَّل[372] . فقالوا من هذا .قالوا: سعد بن عبادة رضى الله عنه.فقالوا ما له؟ . قالوا: وجع[373]. فلما جلس المهاجرون قام خطيب الأنصار- وفى رواية تحدث سعد بن عبادة وكان أحد أبنائه أو

---

[371] الصواعق المحرقة فى الرد على أهل البدع والزندقة: ابن حجر الهيتمى صـ٨ والعواصم من القواصم صـ٦٠

[372] - ملتحق بشملته

[373] - مريض

أبناء عمومته يبلغ حديثه ليسمع القوم- فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله[٣٧٤]:- يا معشر الأنصار: لكم سابقة فى الدين . وفضيلة فى الإسلام. ليست لقبيلة من العرب. إن محمداً صلى الله عليه وسلم لبث بضع عشرة سنة فى قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان. فما آمن به من قومه إلا رجال قليل . وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا أن يعزوا دينه. ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً عُمُّوا به . حتى إذا أراد بكم الفضيلة وساق إليكم الكرامة. وخصكم بالنعمة . فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله. والمنع له ولأصحابه والإعزاز له ولدينه. والجهاد لأعدائه. فكنتم أشد الناس على عدوه من غيركم. حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً. وأعطى البعيد المقادة صاغراً داخراً. حتى أثخن الله عز وجل لرسوله بكم الأرض. ودانت بأسيافكم له العرب. وتوفاه الله وهو عنكم راض. وبكم قرير عين. استبدوا بهذا الأمر دون الناس[٣٧٥]. فإنه لكم دون الناس وفى رواية أخرى[٣٧٦] بعد حمد الله والثناء عليه قال:-

[٣٧٤] - جمهرة خطب العرب جـ١ صـ١٧٣

[٣٧٥] هذا من الدسائس التى تتنافى مع أخلاق الصحابه الكرام. ولا يمكن أن يصدقه عقل سليم. ولا شرع مستقيم.

[٣٧٦] الصواعق المحرقه ص- ١٠

أما بعد: فنحن أنصار الله. وكتيبة الإسلام. وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا. وقد دفت دافة منكم. تريدون أن تخزلونا من أصلنا. وتحضنونا من الأمر[٣٧٧] ولما انتهى خطيب الأنصار من خطبته. أراد الفاروق عمر أن يتكلم. فأمهله الصديق رضى الله عنه. فامتثل له وكره أن يغضبه. فخطب

الصديق. قائلاً بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله:

إن الله بعث محمداً رسولاً إلى خلقه. وشهيداً على أمته. ليعبدو والله ويوحدوه. وهم يعبدون من دونه آلهة شَتَّى. ويزعمون أنها لهم عنده شافعة. ولهم نافعة. وإنما هى من حجر منحوت. وخشب منجور. ثم قرأ- ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله[٣٧٨] وقالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى[٣٧٩]- فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم. فخص الله المهاجرين الأولين من

[٣٧٧] هذا من الدسائس التى تتنافى مع أخلاق الصحابة الكرام. ولا يمكن أن يصدقه عقل سليم. ولا شرع مستقيم.
[٣٧٨] سورة يونس أيه١٨
[٣٧٩] سورة الزمر من الأيه ٣

قومه بتصديقه. والإيمان به. والمواساة له. والصبر معه. على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياهم. وكل الناس مخالف زار[380] عليهم. فلم يستوحشوا لقلة عددهم. وشنف[381] الناس لهم. وإجماع قومهم عليهم. فهم أول من عبد الله فى الأرض. وآمن بالله وبالرسول. وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده . ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم.

وأنتم يا معشر الأنصار: من لا ينكر فضلهم فى الدين. ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام. رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله. وجعل إليكم هجرته. وفيكم جلة أزواجه وأصحابه. فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم. فنحن الأمراء. وأنتم الوزراء. لاتفتاتون بمشورة. ولاتقضى دونكم الأمور. وفى رواية أخرى:بعد حمد الله والثناء عليه قال: أيها الناس: نحن المهاجرون.أول الناس إسلاماً. وأكرمهم أحساباً. وأوسطهم داراً. وأحسنهم وجوهاً. وأكثر الناس ولادة فى العرب. وَأَمَسُّهُم رَحِماً برسول الله صلى الله عليه وسلم. أسلمنا قبلكم. وقدمنا فى القرآن عليكم. فقال تبارك وتعالى- والسابقون الأولون من المهاجرين و الأنصار والذين اتبعوهم

---

[380]- عائب
[381]- بغض الناس وكرههم

بإحسان[٣٨٢] - فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار. إخواننا فى الدين. وشركاؤنا فى الفئ[٣٨٣]. وأنصارنا على العدو. آويتم وواسيتم.

فجزاكم الله خيراً. فنحن الأمراء وأنتم الوزراء. لاتدين العرب إلا لهذا الحى من قريش. فلا تنفسوا على إخوانكم ما منحهم الله من فضله.[٣٨٤] وظل الصديق رضى الله عنه يقول كلاماً كثيراً مصيباً. يكثر ويصيب!!!منه :- نحن الأمراء. وأنتم الوزراء.

- إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :- الأئمة من قريش[٣٨٥].

- إن الله سمّانا:- الصادقين – وسمّاكم:- المفلحين[٣٨٦]- وقد أمركم أن تكونوا معنا حيثما كنا فقال : يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين[٣٨٧]-

---

[٣٨٢] - سورة التوبة أيه ١٠٠
[٣٨٣] - ما أخذ من العدو دون قتال.

[٣٨٤] - تحسدوا
[٣٨٥] - مسند الإمام أحمد عن أنس ح٣ ١٢٩
[٣٨٦] - إشارة إلى الآيتين فى سورة الحشر- للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا. وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون. والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى

- لقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:- لو سلك الأنصار وادياً. وسلك الناس وادياً. لسلكت وادى الأنصار،ولقد علمت يا سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال- وأنت قاعد-:- قريش ولاة هذا الأمر.فبر الناس تبع لبرهم. وفاجرهم تبع لفاجرهم . فقال له: سعد: صدقت. نحن الوزراء وأنتم الأمراء[٣٨٨]. إلى غير ذلك من الأقوال المصيبة. والأدلة القوية.فتذكرت الأنصار ذلك. وانقادت إليه. وبايعوا أبا بكر الصديق[٣٨٩]. بعد أن بايعه المهاجرون رضى الله عنهم أجمعين. وبعد أن تمت بيعة المهاجرين والأنصار للصديق رضى الله عنه،صعد المنبر ونظر فى وجوه القوم فلم يرالزبيربن العوام رضى الله عنه. فجاء. فقال ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه. أردت أن تشق عصا المسلمين ؟! فقال: لاتثريب يا خليفة رسول الله فقام فبابعه. ثم نظر الصديق فى وجوه القوم فلم يرعلياً رضى الله عنه. فدعا به فجاء. فقال: ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه على بنته.

صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون- أيه ٩ - ١٠.

[٣٨٧] - سورة التوبة آية ١١٩

[٣٨٨] - البدايه والنهاية ج٥. ص٢٤٧ والصواعق المحرقة ص١٢ والسيرة النبوية لابن كثير ح٤ ص٤٩١

[٣٨٩] - العواصم من القواصم صـ ٦٢.

أردت أن تشق عصا المسلمين؟! فقال: لاتثريب يا خليفة رسول الله. فقام فبايعه.[٢٩٠]

– وروى ابن إسحاق عن أنس أنه لما بويع أبو بكر فى السقيفة. جلس الغد على المنبر. فقام عمر رضى الله عنه فتكلم قبله. فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: إن الله قد جمع أمركم على خير كم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وثانى اثنين إذهما فى الغار. فقوموا فبايعوه. فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة. بعد بيعة السقيفة.وبعد أن تمت البيعة من عموم الصحابة لأبى بكر رضى الله عنهم أجمعين خطبهم قائلاً:- أما بعد: أيها الناس. فإنى قد وُلِّيتَ عليكم ولست بخيركم.فإن أحسنت فأعينونى. وإن أسأت فقومونى. الصدق أمانة. والكذب خيانة. والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله. والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لايدع قوم الجهاد فى سبيل الله. إلا ضربهم الله بالذل. ولا تشيع الفاحشة فى قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء. أطيعونى ما أطعت

---

[٢٩٠]- الصواعق المحرقة ص ١١ وقد روى الطبرى خبر مبايعة على رضى الله عنه لأبى بكر فوراً بإسانيده عن حبيب بن ثابت! أن عليا كان فى بيته. فأتى إليه الخبر عن جلوس أبى بكر للبيعة. فخرج فى قميص ما عليه إزار ولا رداء. عجلاً كراهية أن يبطئ عنه. حتى بايعه. ثم جلس إليه. وبعث فأحضر ثوبه وتخلله ولزم مجلسه- وعلى كل حال: فإن المتفق عليه فى روايات الشيعة وغيرهم أن عليا وبنى هاشم بايعوا أبا بكر فوراً. كما يرويه الطبرى. أو بعد تردد كما تروى رواية الشيعة وتعاونوا معه العواصم من القواصم ص٥٦ وتاريخ الطبرى جـ٢ ص٤٤٧

الله ورسوله. فإذاعصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله"[٣٩١]. وفى أخرى بعد حمد الله والثناء عليه قال:-........ فاعلموا أيها الناس أن أكيس الكيس التقى. وأعجز العجز الفجور. وأن أقواكم عندى الضعيف.حتى آخذ له بحقه. وأن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق. أيها الناس؛إنما أنا متبع ولست بمبتدع. فإذا أحسنت فأعينونى. وإذا نازعت فقومونى.

قال الإمام مالك: لايكون أحد إماماً أبداً إلا على هذا الشرط[٣٩٢]

والمتأمل فى هذه الخطب.والجو العام الذى قيلت فيه. يلاحظ عدة أمور:-

أولاً: أن المسلمين أصيبوا بفاجعة كبرى لوفاة النبى صلى الله عليه وسلم. مما تسبب فى دهشة مذهلة لعقول بعضهم وتفكيرهم. حتى ظنوا أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يمت. كما حدث للفاروق عمر رضى الله عنه. وقد انتبهوا من غفلتهم بمجرد أن ذكرهم الصديق بقول الله تعالى- وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل.......... الآية.

[٣٩١] -السيرة النبوية لابن كثير جـ٤ صـ٤٩٣
[٣٩٢] - الصواعق المحرقة صـ١٣

ثانياً: أن الصحابة الكرام. اهتموا بالبحث والتشاور حول من يخلف النبى صلى الله عليه وسلم فى أمور الأمة. وأجمعوا على أن تنصيب الإمام بعد النبى صلى الله عليه وسلم واجب. بل جعلوه أوجب الواجبات. حيث اشتغلوا به عن دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم. واختلافهم فى التعيين[٢٩٣] لايقدح فى الإجماع المذكور.......

ثم ذلك الوجوب- لتنصيب الإمام- عندنا معشر أهل السنة والجماعة. وعند أكثر المعتزلة بالسمع. أى من جهة التواتر. والإجماع المذكور. وقال كثير بالعقل.ووجه ذلك الوجوب: أنه صلى الله عليه وسلم أمر بإقامة الحدود. وسد الثغور. وتجهيز الجيوش للجهاد. وحفظ بيضة[٢٩٤] الإسلام. وما لا يتم الواجب المطلق إلا به. وكان مقدوراً. فهو واجب. ولأن فى نصبه جلب منافع لا تحصى. ودفع مضار لا تستقصى. وكل ما كان كذلك كان واجبا[٢٩٥].

---

[٢٩٣]- إلى حدما

[٢٩٤]- البيضة: المجتمع. وموضع السلطان. ومجمع البحرين. شُبه ذلك ببيضة الطائر إذا هلكت هلك ما فيها من طعم أو فرخ. أو شبهه بالخوذة وهى بيضة الحديد.

[٢٩٥]- الصواعق المحرفة صـ٨

وقد انتبه الصحابة لهذا الواجب بمجرد أن انتهى الصديق من خطبته قائلاً:- ولا بد لهذاالأمرمن يقوم به. فانظروا. وهاتوا آراءكم. فقالوا: صدقت. ننظر فيه-

ثالثاً:- تقدير المهاجرين لإخوانهم الأنصار. فحينما خُبّروا باجتماعهم فى سقيفه بنى ساعدة. ذهبوا إليهم ليتشاوروا معهم فى الأمر.

رابعاً:- تقدير الأنصار لإخوانهم المهاجرين. فحينما دخلوا عليهم سقيفه بنى ساعدة. قام خطيب الأنصار مبيناً فضل الأنصار والمهاجرين بقوله:- فنحن أنصار الله. وكتيبة الإسلام. وأنتم يا معشرالمهاجرين رهط منا.....-

خامساً:- ما ورد من ألفاظ على لسان بعض الخطباء فى هذا الموقف يفهم من ظاهرها.

مالا يليق بصحابة النبى صلى الله عليه وسلم.

يحمل على:-

أ:- أنها من الدسائس المقصود بها تشويه صورة الصحابة الكرام.

ب:- أَوْتُمَرَّرُ على ظاهرها. دون الوقوف أمامها. وعدم تضخيمها .

جـ:- أو تفسر بما يليق ومكانة الصحابة الكرام.الذين تربوا فى مدرسة النبوة.والوحى ينزل بين أيديهم. يشيد بأخلاقهم وفضلهم. فيفسر قول خطيب الأنصار:- إستبدوا بهذا الأمر دون الناس فإنه لكم دون الناس:- على أنه : ينصح الصحابة من المهاجرين والأنصار على أن يتمسكوا بخلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولا تترك ليتولاها غيرهما من الأعراب أو الذين لا يحسنون تصريف الأمور. ولا يمكن أن يفسر بما يفهم منه. تنافسهم وتصارعهم على الخلافة والمناصب الدنيوية.أو استبداد وأثرة من يملك على من لا يملك. لأن هذا الفهم يتنافى تماماً مع تربية الصحابة وأخلاقهم التى تربوا عليها بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم. ومع صريح القرآن الكريم الذى يبين نزاهتهم وإيثارهم مع ما قد يكونون فيه من فاقة – للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون. والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم. ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا. ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم

خصاصة. ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون[٣٩٦] - وقال السعد التفتازانى فى شرح المقاصد:- يجب تعظيم الصحابة. والكف عن مطاعنهم. وحمل ما يوجب بظاهره الطعن فيهم على محمال وتأويلات سيما المهاجرين والأنصار وأهل بيعة الرضوان ومن شهد بدراً وأحداً والحديبية. فقد انعقد على علو شأنهم الإجماع وشهدت بذلك الآيات الصراح. والأخبار الصحاح[٣٩٧]

سادساً:- التعامل بالرفق واللين مصحوبا بالحزم وحسن التدبير. يقى المجتمع من الشرور والصعاب. وهذا يظهر جلياً فى موقف الصديق من الفاروق بعد انتهاء خطيب الأنصار من خطبته. فقد خشى الصديق من شدة عمر فى الكلام. وليس الموقف موقف شدة. بل موقف سياسة. وحسن تدبير. فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله. وذكر الرسول صلى الله عليه وسلم. وما جاء به من رسالة التوحيد. وبين حال العرب وما كانوا عليه من وثنية وعصبية. ثم أثنى على المهاجرين وما بذلوه وما لا قوه فى سبيل الإسلام والدفاع عن دعوته. ثم أثنى على الأنصار وبين فضلهم وإيثارهم وسابقتهم العظيمة فى

[٣٩٦] - سورة الحشر آية ٩
[٣٩٧]- الصواعق المحرقة صـ٧

الإسلام. حتى انتهى أمر المجتمعين فى السقيفه إلى مبايعة الصديق خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

والحقيقة:- إن احتماع السقيفة كان اجتماعاً جليل الخطر فى حياة الإسلام والمسلمين. ولو لا ما أبداه الصديق رضى الله عنه من قوة الحزم وصلابة العزم مصحوباً بالرفق واللين. لأوشك هذا الدين الجديد أن يثار عليه فى موطنه. وأن يثار عليه وجثمان النبى صلى الله عليه وسلم ما يزال مسجى فى بيته لم يدفن فى قبره...

أرأيت لو أن الأنصار أصروا على أن يستبدوا بالخلافة استجابه لطلب خطيبهم- على فرض صحة الرواية!! ولم يرض المهاجرون أن تكون الخلافة لغيرهم. فأى مسرح للثورة كانت تصبح مدينة النبى صلى الله عليه وسلم وأى ثورة كانت ستحدث وجيش أسامة بن زيد فى أحشاء المدينة.وفيه المهاجرون والأنصار. وكلهم مدججون بالسلاح مستعدون للحرب؟! فالذى تم فى السقيفه بحكمة الصديق وحزمه وَبُعْدِ نظره.وَحُسْنِ إدراكه للأمور المستقبلية. قد وَقَىَ الإسلام والمسلمين فتنة لايعلم مداها إلاالله تعالى. وقدمهد للقضاء على كل خلاف قد ينشأ بين المسلمين. وأذاع دين الله بين عباده فى مشارق الأرض ومغاربها.

سابعاً:- يظهر من خطبة الصديق بعد الإجماع على البيعة له بالخلافة عدة أمور:

أ:- حسن تواضعه. ولينه في حزم وحزمه في لين. ويظهر هذا في قوله – إني قد وُلِّيتُ هذا الأمر ولست بخيركم.

ب:- رسم سياسة للخلافة الناجحة حين طلب منهم معاونته إذا أحسن. وتقويمه إذا أساء.

جـ:- بيان أن صدق الراعي أمانة في أعناق الجميع. وأن الكذب خيانة.

د:- بيان أن القوي بين الناس ضعيف عنده حتى يأخذ الحق منه لصاحبه وأن الضعيف بين الناس قوي عنده حتى يرد إليه حقه.

هـ:- ترهيبه من ترك الجهاد. لما في تركه من الذل والصغار.

و:- ترهيبه من شيوع الفاحشة لما يترتب عليه من البلاء المبين.

ز:- بيان أن طاعة الإمام واجبة على الرعية في غير معصية.

كل هذا بأسلوب خطابى بليغ. يقنع العقول. ويستميل القلوب.

خطب عمر بن الخطاب رضى الله عنه:

لما استخلف عمر رضى الله عنه صعد المنير. فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله, ثم قال:- إنما مثل العرب مثل جمل أنفٍ[٣٩٨] اتبع قائده. فلينظر قائده حيث يقوده. وأما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق. ثم قال : أيها الناس: إنى داعٍ فأمّنُوا. اللهم إنى غليظ فليّنى لأهل طاعتك. بموافقه الحق. ابتغاء وجهك. والدار الآخرة. وارزقنى الغلظة والشدة على أعدائك. وأهل الدعارة[٣٩٩] والنفاق. من غير ظلم منى لهم. ولا اعتداء عليهم.

اللهم إنى شحيح فَسَخِّنى فى نوائب المعروف قصداً من غير سرف ولا تبذير. ولا رياء ولا سمعة. واجعلنى أبتغى بذلك وجهك والدار الآخرة. اللهم ارزقنى خفض الجناح. ولين الجانب للمؤمنين. اللهم إنى كثير الغفلة والنسيان. فألهمنى ذكرك على كل حال. وذكر الموت فى كل حين.

[٣٩٨] أنف: إشتكى أنفه من البرة. وفى الحديث:- المؤمن كالجمل الأنف إن قيد انقاد. وإن استنيخ على صخرة استناخ وذلك للوجع الذى به. فهو ذلول منقاد.
[٣٩٩] الفجور.

اللهم إنى ضعيف عن العمل بطاعتك: فارزقنى النشاط فيها. والقوة عليها. بالنية الحسنة التى لا تكون إلا بعزتك وتوفيقك.

اللهم ثَبِّتْنى باليقين والبر و التقوى. وذكر المقام بين يديك والحياء منك وارزقنى الخشوع فيما يرضيك عنى. والمحاسبة لنفسى. وإصلاح الساعات والحذر من الشبهات

اللهم أرزقنى التفكر والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك والفهم له. والمعرفةُ بمعانيه، و النظر فى عجائبه. والعمل بذلك ما بقيت. إنك على كل شئ قدير.

ثم قال:- إن الله عز وجل قد ولانى أمركم. وقد علمت أنفع ما بحضرتكم لكم. وإنى أسأل الله أن يعيننى عليه. وأن يحرسنى عنده. كما حرسنى عند غيره. وأن يلهمنى العدل فى قسمكم. كالذى أمرنى به. وإنى امرؤ مسلم. وعبد ضعيف إلا ما أعان الله عز وجل. ولن يغيِّر الذى وليت من خلافتكم من خلقى شيئاً إن شاء الله. إنما العظمة لله عز وجل . وليس للعباد منها شئ. فلا يقولن أحد منكم: إن عمر تغير منذ وُلِّىَ. أعقل الحق من نفسى. وأتقدم وأبين لكم أمرى فأيما رجل كانت له حاجة. أو ظلم مظلمة. أوعتب علينا فى خلق فليؤذنى. فإنما أنا

رجل منكم. فعليكم بتقوى الله في سركم وعلانيتكم وحرماتكم وأعراضكم. وأعطوا الحق من أنفسكم. ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إلىَّ. فإنه ليس بينى وبين أحد من الناس هوادة. وأنا حبيبٌ إلىَّ صلاحُكم. عزيز علىَّ عنتكم. وأنتم أناس عامَّتكم حضر في بلاد الله. وأهل بلد لازرع فيه ولا ضرع. إلا ما جاء الله به إليه. وإن الله عز وجل قد وعدكم كرامة كثيرة. وأنا مسئول عن أمانتى. وما أنا فيه. ومطّلع على ما بحضرتى بنفسى إن شاء الله. لا أَكِلُهُ إلى أحد. ولا أستطيع ما بَعُدَ منه إلا بالأمناء وأهل النصح منكم للعامة. ولست أجعل أمانتى إلى أحد سواهم إن شاء الله [٤٠٠].

- هذه الخطبة أو الخطب لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه. تمثل ما كانت عليه الخطابة في عهد النبى صلى الله عليه وسلم وخليفته الصديق رضى الله عنه. حيث:-

١- بدأها بحمد الله تعالى والثناء عليه بما هو أهله.

[٤٠٠] جمهرة خطب العرب جـ١ صـ٢١١ ٢١٤.

٢- وصفه للعرب- المسلمين- وتشبيهه لهم بجمل مثقل متعب. اتبع قائده. فيجب على قائده أن يتقى الله فيه حيث يقوده فى الطرقات.

وقد أقسم الفاروق أن يسير برعيته على الطريق المستقيم الذى لا عوج فيه ولا أمتا.

٣- إظهار الخشوع والتضرع والتذلل لله تعالى ابتغاء وجه الله والدار الآخره. فى كل ما يؤدى إلى صلاح الدين والدنيا. مع الحزم والشدة على كل من يخالف طريق الله المستقيم من غير اعتداء عليهم.

٤- حرصه على تحقيق المنفعة العامة للأمة مع تحرى العدل فى التوزيع.

٥- تعهده أمام الله تعالى. وأمام رعيته على أمر الخلافة لا تغير فى أخلاقه شيئاً. لأن العظمة لله تعالى وليس للعباد منها شىء.

٦- حرصه على أن يتقدم إليه كل ذى نصح أو عتب. أو حاجة دون وسيط.

٧- تحذيره من أن يتسيب بعض الرعية لبعضهم فى مظالم ترفع إليه ليحكم فيها. لأنه لا تأخذه فى الحق لومة لائم. وينفذه بلا هوادة.

٨- تعهده بتحمل المسئولية الكاملة عن أمانة الخلافة وأعبائها بكل دقة.

٩- تعهده بالإشراف المباشر على كل ما يحضره ولا يكله إلى غيره إلا إذا كان بعيداً عنه.

١٠- تعهده بألا يشترك معه فى المسئولية إلا الأكفاء الأمناء.

وهو بهذا يظهر أمام الله تعالى وأمام رعيته بأنه (يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه).

= تطور الخطابة فى عهد الفاروق:-

لقد تطورت الخطابة فى عهد الفاروق تطوراً كثيراً:-

- بسبب كثرة الفتوحات الإسلاميه وتوسعها شرقاً وغرباً. وكانت تعتمد أساساً على الخطابة.

- كثرة الحروب بين المسلمين وغيرهم. التى ما كانت تهدأ إلا لتقوم. وكانت شدتها وَحِدَّتُها بوقود الخطابة.

- تطور الأحداث السياسية داخل الساحة الإسلامية. والتى انتهت بمقتل الفاروق عمر رضى الله عنه وأرضاه.

= خطب ذى النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه.

تطورت الخطابة فى عهد ذى النورين رضى الله عنه تطوراً مذهلاً أكثر مما كان عليه الحال فى عهد الصديق والفاروق. نظراً للأحداث التى طرأت على الساحة الإسلامية. وانتهت بمقتل ذى النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه. وقد بدأت هذه الأحداث. باهتمام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه. وهو على فراش الموت بمن يلى أمر المسلمين. فأراد أن يتخير أحسن المسلمين. وأصلحهم لتحمل المسئولية. فتخير ستة أشخاص. على أن يكون واحداً منهم خليفة له. وهم: عثمان بن عفان. وعلى بن أبى طالب. وطلحة بن عبيد الله. والزبير بن العوام. وعبد الرحمن بن عوف. وسعد بن أبى وقاص.[٤٠١] وترك الأمر شورى للمسلمين يختارون من يشاؤون من هؤلاء الستة. وانتهى أمر المسلمين إلى اختيار ذى النورين عثمان رضى الله عنه خليفة عليهم. وأنسوا إلى ما فيه من لين ودعة. على ما قاله الإمام أحمد بن حنبل:- لم يتفق الناس على بيعة كما اتفقوا على بيعة عثمان. وَلَّاهُ المسلمون بعد تشاورهم ثلاثة أيام. وهم مؤتلفون متفقون متحابون متواردون معتصمون بحبل الله جميعاً. وقد أظهرهم

---

[٤٠١] الصواعق المحرقة صـ١٠٥.

الله. وأظهر بهم ما بعث به نبيه من الهدى ودين الحق. ونصرهم على الكفار. ففتح بهم بلاد الشام والعراق وبعض خراسان.[402] وفى هذا إرشاد دقيق إلى ما كان عليه بنوا هاشم وبنوا أميه من الإتفاق والمحبة والتعاون فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم. وأبى بكر، وعمر، وأن عثمان وعلياً كان أحدهما أقرب إلى صاحبه من سائر الأربعة- باقى الستة الذين رشحهم عمر- إليهما.[403]

خطبة ذي النورين حين بايعه أَهْلُ الشورى:-

روى الطبرى لما بايع أَهْلُ الشورى عثمان. خرج وهو أشدهم كآبة. فأتى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم.فخطب الناس. فحمد الله وأُثنى عليه. وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم. وقال: إنكم فى دار قُلْعَةٍ.[404] وفى بقية أعمار. فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه. فلقد أُوتيتم. صُبِّحتُم أو مُسِّيتُم. ألا وإن الدنيا طويت على الغرور. فلا تغرنكم الحياه الدنيا. ولا يغرنكم بالله الغرور. اعتبروا بمن مضى. ثم جِدُّوا ولا تغفلوا. فإنه لا يُغْفَلُ عنكم. أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين آثروها وعَمَرُوها. وَمُتِّعُوا بها طويلاً. ألم تلفظهم؟ أرموا بالدنيا حيث

[402] - العواصم من القواصم صـ٦٩
[403] - السابق نفسه
[404] - أى انقلاع أى ليس بمستوطن. أولا تملكه أو لا تدرى حتى تتحول عنه.

رمى الله بها. واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلاً. والذى هو خير. فقال عز وجل: واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح. وكان الله على كل شئ مقتدراً. المال والبنون زينة الحياة الدنيا. والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً[٤٠٥]- وأقبل الناس يبايعونه[٤٠٦] وبعد البيعة خطبهم قائلاً:-

أما بعد: فإنى قد حُمِّلتُ. وقد قبِلتُ. ألا وإنى متبع. ولست بمبتدع. ألَا وإن لكم علىَّ بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم. ثلاثاً:

- إتباع من كان قبلى. فيما اجتمعتم عليه وسننتم.

- وسَنَّ سنة أهل الخير فيما لم تَسنوا عن ملأ.

- والكف عنكم إلا فيما استوجبتم

ألا وإن الدنيا خضرة قد شُهِّيَت إلى الناس. ومال إليها كثير منهم. فلا تركنوا إلى الدنيا. ولا تثقوا بها. فإنها ليست

---

[٤٠٥] سورة الكهف آية ٤٦

[٤٠٦] تاريخ الطبرى ج٤ ص٤٣

بثقة. واعلموا أنها غير تاركة إلا مَنْ تركها.[٤٠٧] وقال ابن قتيبة: لما ولى عثمان صعد المنبر. فجلس على ذروته. فرماه الناس بأبصارهم. فقال:- إن أول مركب صعب. وإن مع اليوم أياماً. وما كنا خطباء. وإن نعش تأتكم الخطبة على وجهها إن شاء الله تعالى-[٤٠٨]. هذه الخطبه أو الخطب لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه.تمثل ما كانت عليه الخطابة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم.والصديق. والفاروق رضى الله عنهما. حيث:

١:- بدأها بالحمد والثناء على الله بما هو أهله. والصلاة والسلام على النبى صلى الله عليه وسلم.

٢:- بيان أن الدنيا ليست بدار قرار. فيجب على الإنسان أن يبادر أجله

بالخيرات. وأن يعتبر بمن مضى من الأولين. مع الجد والإجتهاد وعدم

الغفله لأن الموت لا يغفل عن المخلوفات. والترغيب فى طلب الآخرة.

---

[٤٠٧] السابقين جـ٥ صـ١٤٩

[٤٠٨] عيون الأخبار جـ٢ صـ٢٣٥ وجمهرة خطب العرب جـ١ صـ٢٧١-

٣:- تزيين الخطبة بالقرآن الكريم.

٤:- تركيزه على الالتزام بالسنة. والبعد عن البدعة.

٥:- تركيزه على أن تعامله مع الرغبه يكون:-

أ:- من واقع القرآن والسنة. ب:- إتباع ما كان عليه أبو بكر وعمر مما لم يكن فى القرآن أوالسنة.

ج:-الأخذ بإجماع الصحابة فيما لم يكن فى القرآن أوالسنة أو هدى الخليفتين من قبله.

د:- الكف عما صدر من مخالفات يرتكبها البعض. إلا فيما وصل إليه من حدود مستوجبة.

٦:- عود على بدء حيث يركز على عدم الركون إلى الدنيا. لأنها ليست بثقة

٧:- مواجهة الجمهور لأول وهلة قد يترتب عليها حصر الخطيب. فيجب

أن يكون سريع البديهة. واسع الثقافة ليسعف نفسه فى المواقف الصعبة.

خطب أمير المومنين على بن أبى طالب رضى الله عنه:-

الإمام على رضى الله عنه توفرت له كثير من الصفات الكريمة. والخلال الحميدة. فى مقدمتها:الموهبة الخطابية والبلاغية,فتجمعت فيه خصائص أسرية إذ كان أجداده حاضنى الكعبة وسدنتها,كابراً عن كابر. ورث عنهم شعرهم. وأمثالهم وحكمهم ووصاياهم وخطبهم وتاريخهم. وكان ربيب بيت النبوة الشريفة. تربى فيه على أدب السماء. وفصاحة القرآن. حتى جاءت كلماته وتعبيراته. وحكمه وأمثاله ووصاياه. تصور العقل الحكيم. والرؤيا الملهمة. وتعرض تجربة المتأمل المتسامى. أما خطبه فهى مجلجلة. ملتفة بعبارات الأضواء من أدب القرآن. وبلاغة رسول الرحمن. صلى الله عليه وسلم. تدور حول الإرشاد, والشرح والتفسير. وتحديد الاتجاه والموقف. وتبيان الأخطار والضلالات. والتحذير من الآثام والانحرافات. فياضة بحب الإنسان. والفضيلة وطاعة الله. والتمسك بعرى الإسلام. وسنة الهادى المصطفى عليه السلام. لأنه كان- رضى الله عنه- قوى البيان. واضح الحجة. أبلج الاستدلال. رفيع المنطق. هادى النور. أخطب المسلمين على الإطلاق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم,وفى هذا يقول

الإمام محمد عبده- كان يخيل لى فى كل مقام أن حروباً شبَّت. وغارات شنت. وأن للبلاغة دولة. وللفصاحة صولة. وأن للأوهام عرامة.[٤٠٩] وللريب دعارة[٤١٠]. وأن جحافل[٤١١] الخطابة. وكتائب[٤١٢] الذَّرابة[٤١٣] فى عقود النظام. وصفوف الانتظام تنافح[٤١٤] بالصفيح الأبلج[٤١٥]. والقويم الأملج[٤١٦]. وتمتلج المهج[٤١٧] برواضع الحجج. فتفلُّ من دعارة الوساوس.[٤١٨] وتصيب مقاتل الخوانس[٤١٩]فما أنا إلا والحق منتصر. والباطل منكسر. ومرج الشك[٤٢٠] فى خمود. وهرج الريب[٤٢١] فى ركود. وأن مدبر تلك الدولة. وباسل تلك الصولة. هو حامل لوائها. الغالب. أمير المؤمنين على بن أبى طالب[٤٢٢] رضى الله عنه وأرضاه:- ويقول الأستاذ أحمد حسن الزيات فى مجال وصف خطابة الإمام علي رضى الله عنه:-

---

[٤٠٩] - العرامة: الشراسة.
[٤١٠] -الدعارة: سوء الخلق
[٤١١]- الجحافل: الجيوش
[٤١٢] - الكتائب:الفرق من الجيوش.
[٤١٣] - الذراية: حِدَّة اللسان فى فصاحة. والكلام تخييل حرب بين البلاغة وهائجات الشكوك والأوهام.
[٤١٤] -تنافح: تضارب أشد المضاربة.
[٤١٥] -الصفيح الأبلج: السيف اللامع البياض
[٤١٦] -القويم الأملج: الرمح الأسمر.
[٤١٧] -تمتص دماء القلوب. والمراد: لاتبقى للأوهام شيئاً من مادة البقاء.
[٤١٨] -تضعف وتهزم سوء خلق الشكوك
[٤١٩] -الخوانس: خواطر السوء تسلك من النفس مسالك الخفاء
[٤٢٠] -اضطرابه
[٤٢١] - هيجانه الفتنه
[٤٢٢] - نهج البلاغة صـ١١

- ولا نعلم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيمن سلف وخلف. أفصح من عليٍّ فى المنطق. ولا أبلَّ ريقاً فى الخطابة. كان حكيماً تتفجر الحكمة من بيانه. وخطيباً تتدفق البلاغة على لسانه. وواعظاً ملء السمع والقلب. ومترسلاً بعيد غور الحجة. ومتكلماً يضع لسانه حيث شاء. وهو بالإجماع أخطب المسلمين. وإمام المنشئين. .:. وما نظن ذلك قرتهيأ له. إلا لشدة خلاطه للرسول صلى الله عليه وسلم. ومرانته منذ الحداثة على الخطابة له. والخطابة فى سبيله صلى الله عليه وسلم.[٤٢٣] وقد ولى الخلافة بالمدينة المنورة يوم مقتل ذى النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه في ذى الحجة سنة ٣٥هجرية. ورحل عن المدينة المنورة إلي الكوفة. فاستقر بها. وكانت خلافته أربع سنوات وتسعة أشهر وعشرة أيام. وقتل بالكوفة غيلة على يدعبرالرحمن بن ملجم المرادى الخارجى بالمسجد فى ١٧ رمضان سنه ٤٠ هجرية. ومن بيانه وفصاحته رضى الله عنه قوله:

كن فى الفتنة كابن اللبون. لاظهر فيركب. ولا ضرع فيحلب.

---

[٤٢٣] وتاريخ الأدب العر في أحمد حسن الزيات صـ١٨٦.

- أزرى بنفسه من استشعر الطمع. ورضى بالذل من كشف عن ضره. وهانت عليه نفسه من أمَّرَ عليها لسانه.

- إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره. وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه.

- ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر فى فلتات لسانه. وصفحات وجهه[٤٢٤].

وقد كانت خطبه رضى الله عنه نموذجاً يحتذى:-

- لأنه تربى فى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ طفولته المبكرة

وأسلم صبياً. فلم تدنسه العقائد الباطلة مثل غيره من الشباب.فشب على جوامع الكلم. وكريم الخلال.

- عاش كل أحداث الدعوة الإسلامية منذ بدايتها الأولى.وخاض جميع غمارها حتى كان مضرب الأمثال بما صنعه ليلة الهجرة النبوية الشريفة. حين نام مكان النبى صلى الله عليه وسلم فتأصلت فيه نخوة الرجولة والشجاعة.حتى بلغت غايتها فيه.

[٤٢٤] - خطب أمير المؤمنين على بن أبى طالب صـ٣١

- تحمله لمثل هذه المهمة الجسيمة.أضفى على شخصيته وعلى كلامه صبغة الجد والصدق والإقناع والتأثير. (فإذا تكلم... لم يكن كلامه عاديا.وإنما كان له من تجربته وتطبيقه لما يقول: مزيد من التأثير فى السامعين... الذين لا يتلقون عنه كلاما فقط. وإنما تجربة نابضة بالحركة والحيوية.

- هذا بالإضافة إلى ما زوده به الإيمان من معرفة دقيقة بدوافع النفس الإنسانية ورغائبها مما ساعده على الضرب فوق وترها الحساس.فحقق التأثير المطلوب.)[٤٢٥]

- إذاً: فالباعث الأهم لخطب الإمام على.والمعين الأعمق الذى يغترف منه: كانت ثقافته الإنسانية العميقة الجذور-التى أوغل فيها. يتقصى أحوال البشر وواقع النفس. يغذى ذلك ويرفده ما اطلع عليه من أمر الدين وتعاليمه.

وإذا كانت الحلة البلاغية.التى تكسو خطبه. تحدث الانفعال فى نفس السامع فإن ثقافة الإمام وخبرته العميقة بأحوال النفس البشرية.كانت تعمق الانفعال،وتجعله يقيم فى نفوس الناس متفاعلا فيها.

[٤٢٥] الخطابة فى موكب الدعوة صــ ٣٧٩

فخطبة الإمام ليست الخطبة الحماسية الفاقدة للمضمون.
بل إنها الخطبة الإنسانية التى توضح معاناة الناس لمصائرهم، وتأرجحهم بين:الحق والباطل. والنصر والهزيمة. والاعتدال والميل. والدين والدنيا. وما إلى ذلك من ثنائيات نفسية شديدة التوتر بالفاجعة. وقد كان الإمام عَلِيٌّ بذلك شاهد على عصره . تنعكس أزماته وأحداثه فى خطبه. من انعكاسها فى ضمير الخطيب. ووقوفه فيها موقف المصارع الشهيد.الذى تنزف جراح الحق من جنبيه وأحشائه.[٤٢٦] حتى اتفق خصومه وأنصاره على بلاغته.كمااتفقوا على علمه وفطنته.[٤٢٧] ومن هنا تظهر لنا بعض خصائص الإمام على فى فن الخطابة:-

١:- يمتاز بِحِدَّةِ الانفعال.الذى يندمج فيه موضوع خطبته. بذاته كخطيب. لأن موضوع الخطبة جزء من تجربته الشخصية. أى جزء من حياته الخاصة.

٢:- كان يصدر فى خطبته عن نزعة دينية عميقة الجذور فى نفسه.وهو بذلك منطقى مع نفسه وظروفه التى نشأ فيها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.فى مساقط الغيث المبارك الطهور.

---

[٤٢٦]- فن الخطابة: إيليا حاوى. صـ١٥٨.
[٤٢٧]- نهج البلاغة صـ٩.

فكان ذلك كله زاداً من المعانى الحية القدسية. إلى جانب فطرته التى تميزت بشدة الإحساس. والشعور المرهف. النافذ إلى دقائق النفس الإنسانية. وقد نفخ فى كلماته روح الحياة... فتأخذ طريقها إلى قلوب تتلقى عنه بالإعجاب والتقدير. على قدر ما أحدث فيها من تأثير.[428]

٣:- قد يلاحظ فى أسلوبه تكراراً: لكنه التكرار المقبول وليس هو بالمعنى التقليدى المعروف.

إنه يتناول المعنى بألفاظ مختلفة.. يتحقق فيها تشويق السامع وإثارته ليستوعب ما يقال. وأكبر من ذلك. فإنها ألوان من التعبير يحس قائلها أنه ممتلئ الوجدان بعظمة الخالق سبحانه وتعالى. فيحاول التعبير عن هذه العظمة[429] بكافة السبل والوسائل. كتكرار بعض الألفاظ وغير ذلك. ومن أشهر خطبه التى ينطبق عليها ما سبق:-

خطبة الجهاد

= المناسبة التى قيلت فيها الخطبة:-

[428] الخطابة فى موكب الدعوة صـ ٣٨٠.
[429] السابق صـ ٣٨١

نما إلى علم على بن أبى طالب: أن خيلا لمعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه يقودها سفيان بن عوف الأزدى. ثم الغامدى. أغارت على الأنبار زمان على بن أبى طالب رضى الله عنه. فقتل عاملها من قِبَلِ عَلِيٍّ. واسمه حَسّان أو ابن حسان البكرى [٤٣٠]. ودخلت الدور. وأخذت الحُلِيّ من أيدى النساء المسلمات منهن والمعاهدات. وغنمت. ثم رجعت هذه الخيل. من غير أن تلقى مقاومة. أو يصيبها أذى. فخرج على مغضباً. حتى جلس على باب السُّدَّةِ [٤٣١]. فحمد الله تعالى. وأثنى عليه. وصلى وسلم على نبيه. ثم قال:-

= نص الخطبة:-

أما بعد: فإن الجهاد باب من أبواب الجنة. فمن تركه رغبة عنه. ألبسه الله ثوب الذل. وشملة البلاء [٤٣٢]. ولزمه الصَّغَارُ. وسيم الخسف. [٤٣٣] ومنع النصف. [٤٣٤]

ألا إنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً. وسرا وإعلانا. وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم. فوالله ما

[٤٣٠] هو أشر بن حسان البكرى.
[٤٣١] السدة كالصفة تكون بين يدى البيت وسدة المسجد: ما حوله من الرواق
[٤٣٢] الشملة: كساء واسع.
[٤٣٣] سيم الخسف: أذل.
[٤٣٤] النصف بالتحريك: وكذا النصفة: الإنصاف:

غُزِىَ قومٌ قط فى عقر دارهم إلا ذُلُّوا[435]، فتواكلتم[436] وتخاذلتم. وثقل عليكم قولى. فاتخذتموه وراءكم ظهريا[437]، حتى شُنَّتْ عليكم الغارات.

هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار[438]. وقتل حسان أو ابن حسان البكرى... وقتل منكم رجالاً صالحين. ولقد بلغنى: أن الرجل منهم كان يدخل على المسلمة والأخرى المعاهدة فينزع حجلها وَقُلْبَهَا ورعاثها[439]، ثم انصرفوا وافرين[440].

ما كُلِمَ رجل منهم كَلْماً[441]، فلو أن امرءاً مسلماً مات من بعد هذا أسفا. ما كان عندى به ملوما. بل كان به عندى جديراً فيا عجباً من جِدِّ هؤلاء القوم فى باطلهم وفشلكم عن حقكم. فقبحا لكم وترحا[442] حين صرتم هدفا يرمى وفيئاً ينتهب. يغار

---

[435] - عقر الدار: بالضم والفتح: محلتهم بين الدار والحوض.
[436] - تواكلتم: وكل كل منكم الأمر إلى الأخر.
[437] - اقتباس من تعالى: (قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربى بما تعلمون محيط) آية ٩٢ من سورة هود.
[438] - أخو غامد: هو سفيان بن عوف من بنى غامد. قبيلة من اليمن من أزد شنوءة بعثه معاوية لشن الغارات على أطراف العراق. تهويلا على أهله. والأنبار: بلدة على الشاطئ الشرقى للفرات. ويقابلها علي الجانب الغربى هيت.
[439] - الحجل: الخلخال. والقلب بالضم فسكون: السوار. الرعاث جمع رعث بالفتح. ورعثة بالضم والتحريك. وهو القرط.
[440] - تامين على كثرتهم لم ينقص عددهم.
[441] - وما خدش رجلا منهم خدشا صغيراً أو كبيراً.
[442] - قبحه الله قبحا: أقصاه وأبعده من كل خير. والترح: الحزن وهو هنا ما ينصب ليرمى بالسهام إشارة إلى أن أهل العراق هدفا لجنود معاوية. يرمونهم فلا يدفعون عن أنفسهم الأذى

عليكم ولا تغيرون. وَتُغْزَوْنَ ولا تَغْزُون.وَيُعْصَى اللهُ وَتَرْضُون.
فإذا أمرتكم بالسير إليهم فى أيام الحر قلتم: حمارة القيظ[٤٤٣]
أَمْهِلْنَا ينسلخ عنها الحر.وإذا أمرتكم بالسير فى البرد، قلتم :
أمهلنا ينسلخ عنا القر[٤٤٤]، كل هذا : فرار من الحر والقر، فإذا
كنتم من الحر والقر تفرون، فأنتم والله من السيف أَفَرّ . يا
أشباه الرجال ولا رجال ،ويا أحلام الأطفال[٤٤٥] . وعقول
ربات الحجال[٤٤٦]، وَدِدْتُ لو أن الله تعالى أخرجنى من بين
ظهرانيكم.قبضنى إلى رحمته من بينكم. والله لَوَدِدْتُ أنى
لم أركم ،ولم أعرفكم ،معرفتكم والله جرت ندماء قد وريتم صدري
غيظا[٤٤٧]، وجرعتمونى الموت أنفاسا[٤٤٨]، وأفسدتم عَلَيّ
رأيى بالعصيان والخذلان ، حتى قالت قريش: ابن أبى طالب
شجاع لكن لا علم له بالحرب. لله أبوهم !!! وهل منهم أحد أشد
لها مراسا[٤٤٩]. أو أطول لها تجربة منى؟؟!! لقد مارستها وما

---

[٤٤٣] شدة الحر
[٤٤٤] - شدة البرد .
[٤٤٥] -اى يا عقول الاطفال .
[٤٤٦] -اى النساء.
[٤٤٧] -اى ملأتم صدرى غيظا .
[٤٤٨] -انفاسا جمع نفس و هو الجرعة من الماء ونحوه .
[٤٤٩] -المراس: المزاولة .

بلغت العشرين. فها أنا قد نيفت على الستين. ولكن لا رأى لمن لَايُطَاعَ.[٤٥٠]

= تحليل الخطبة:-

تحدث الإمام عَلِيٌّ فى هذه الخطبة عن موضوع الجهاد والحث عليه.والترغيب فيه.والترهيب من التفريط فيه. وقد جاءت الخطبة محكمةً فى أدائها. قويةً فى أسلوبها. شديدةً فى ألفاظها وتعبيراتها. لأن مقامها يقتضى ذلك. فجاءت موافقة لمقتضى الحال.

١- بدأها الإمام على بالترغيب فى الجهاد.مبيناً أنه باب من أبواب الجنة.

٢- الترهيب من التخاذل عن الجهاد.لأنه يورث الإنسان الذل والمهانة

٣- التبكيت على عدم سماعهم دعوته لهم.بالاستعداد للغزو.وعلى تواكلهم وعدم مبالاتهم. بقوله؛ حتى كانت الفاجعة بالإغارة. ثم الهزيمة الساحقة.

---

[٤٥٠]- البيان والتبيين جـ٢ صـ٥٣

٤- ويبدأ هذا التبكيت حين يعجب من جد المبطل فى باطله. وتقاعس المحق فى الدفاع عن حقه. واسترداد شرفه وكرامته. وحين يبين تعليلاتهم السقيمة. وأفكارهم الصبيانية والنسائية فى عدم خروجهم للجهاد. بالحر والبرد.

٥- وينتهى من خطبته بتمنيه الموت•إذ هو أشرف عند الله وعند الناس.مما حدث . إذ كان كرم الله وجهه.مضرب الأمثال فى الفتوة والشجاعة.منذ الصغر.فهو اليوم بتخاذلهم عن الجهاد.على لسان القالة :لاعلم له بالحرب.والإ مام على كرم

الله وجهه بهذا العرض الدقيق المثير.يستثير فيهم غريزة المقاتلة.ليصحوا بعد رقاد•وينشطوا بعد خمول.ولم يكن غضبه جامحاً.يريد به قتل نفوسهم.بل إنه بما بسط من قول. وما كشف من خفايا النفوس•يريد لهم أن يجددوا حياتهم. ليأخذوا لهم مكاناًتحت الشمس.ولايصبحون هكذا هدفاً لكل رام وحظيرة من غير باب.[٤٥]

ويؤكد هذا:-أنه فى نهاية الخطبة قام رجل من الأزد•يُقَالُ له ابن عفيف.ثم أخذ بيد ابن أخ له فقال : هأنذا ياأميرَ

---

[٤٥] الخطابه فى موكب الدعوة ص ٣٨

المؤمنين لا أملك إلا نفسى وإبن أخى.فأمرنا بأمرك.فوالله لنمضين له.ولو حال دون أمرك شوك الهراس[452] وجمر الغضى[453]. فقال لهما على:وأين تبلغان ما أريد [454]رحمكما الله تعالى. وهكذا نجد: أن الإمام على كان خطيباً مُفَوَّهاً. طليق اللسان،يأسر القلوب بجوامع كلامه. ويهدى النفوس ببالغ بيانه:

- وأن خطبه تتنوع بحسب الأحوال والمواقف.[455]

- وأن خُطَبَهُ مليئة بالفضائل. والدعوة إلى الوحدانية.وصدق التوجه إلى الله تعالى. وعدم الركون إلى الدنيا. والاستعداد للآخرة.

خصائص الخطابة فى عصور الإسلام:-

أمتازت الخطابة فى عصر صدر الإسلام بميزات وخصائص عما كانت عليه فى العصر الجاهلى. سواء أكانت فى الموضوع. أم فى الأسلوب. أم فى الألفاظ.

---

[452] - الهراس بالفتح شجر كثير الشوك.

[453] -- جمر النار الحامية.

[454] - ويروى أنه أثنى عليهما خيرا وقال أين تقعان مما أريد ثم نزل- الجاحظ جـ ٢ ص ٥٥.

[455] - شتان بين مفاخرة تمتلئ بكل ما تمليه الجاهلية. ومفاخرة تمتلئ بكل ما تمليه تعاليم الإسلام وهداية الرحمن.

= خصائصها من حيث الموضوع:-

أ- إن المتتبع لتاريخ الخطابة فى عصر صدر الإسلام يجد أن موضوعات الخطابة تركزت حول أمور فى مقدماتها: نبذ كل مآثر الجاهلية. وعاداتها المذمومة. حتى تلاشت بعض الألوان الخطابية التى لا تتناسب والحياة الإسلامية الجديدة فقد هجر الخطباء خطب المنافرات وما يترتب عليها من إثارة الحقد والبغضاء فى النفوس. وخطب المفاخرات إلا ما تتطلبه الضرورة التى تقدر بقدرها. وما تقره مبادئ الإسلام وتعاليمه. كما حدث مع وفد تميم لما قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم. واستأذنوه لخطيبهم ليخطب بين يديه صلى الله عليه وسلم مفاخراً. فأذن له. ولما انتهى أذن صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس: قم فأجب الرجل فى خطبته مفاخراً[456]

وكذلك هجرت المنافرات. إذ لا حاجة إلى التفاخر بالأحساب والأنساب. والدين يدعوهم إلى الإخاء. المساواة بين البشر جميعاً. فهم من أب واحد. من منبت واحد. كلكم لآدم. وآدم من تراب. وكذلك لا حاجة إلى المناظرات والمجادلات التى تؤدى إلى شحن القلوب بالعداوة والبغضاء. فهناك بساطة فى

---

[456] - شتان بين مفاخرة تمتلئ بكل ما تمليه الجاهلية. ومفاخرة تمتلئ بكل ما تمليه تعاليم الإسلام وَهِدَاية الرحمن.

التدين. وسهولة فى الاعتقاد. حتى أصبح الدين هو الهدف الأسمى من الموضوعات الخطابية. ولم تخرج الخطبة عن واحد مما يأتى:-

أولاً:- الدعوة إلى التمسك بأصول الدين. والحرص عليها. ابتداءً بالشهادتين فالصلاة والزكاة والصيام والحج. والجمع والجماعات.....الخ.

ثانياً:- الدعوة إلى تقوى الله. ومراقبته فى السر والعلن. حتى إن بعض العلماء يرون أن الوصية بتقوى الله ركن فى خطبة الجمعة.

ثالثاً:- الدعوة إلى ترك مآثر الجاهلية. وكل ما يشين الإنسان فى عادته وعقيدته وأخلاقه وسلوكه. ويوضح هذا كله خطبته صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع.

رابعاً:- التربية الاجتماعية بكل ماتتطلبه من تحقيق العداله والمساواة بين كل البشر- يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم. [٤٥٧]، فحددت علاقة الفرد بالمجتمع الصغير ممثلاً فى الأسرة أو القبيلة. والمجتمع الكبير الذى ينتمى إليه الفرد

---

[٤٥٧]- سورة الحجرات آية. ١٣

ممثلاً فى بلده أو وطنه. ثم يسير مع الإنسان حتى نهاية حياته- ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه.

خامساً:- الدعوة إلى الجهاد. وحث المسلمين على التضحية والفداء والصبر فى مواجهة الأعداء لتكون كلمة الله هى العليا. وكلمة الذين كفروا هى السفلى. إلى غير ذلك من الموضوعات الخطابية التى يتطلبها الحال فى كل زمان ومكان وجد فيه المسلمون من الرعيل الأول.

ب:- كما يلاحظ المتتبع لخطب عصر صدر الإسلام أنها التزمت بوحدة موضوعية. خلافاً لما كان عليه الحال فى الجاهلية. من تعدد الموضوعات فى الخطبة الواحدة. يأخذ الخطيب من كل موضوع بطرف ولو قليلاً.

جـ:- ووحدة عضوية. حيث كان خطباء هذا العصر يتحدثون فى موضوع واحد. مسلسلة أفكاره وأجزاؤه. ولم تكن الخطبه متناثرة كما كان عليه الحال فى الجاهلية.

د:- التزم الخطباء بالصدق والوضوح. واستقامة الفكر وسلامة النفس. والتنزه عن المبالغة والإغراق، اللذيْن يمثلان مظهراً من مظاهر الشطط الفكرى. والغلو فى التفاصح. الذى يعدُّ من التفيهق الذى نهى عنه النبى صلى الله عليه وسلم.

خصائصها من حيث الأسلوب:-

أمتاز أسلوب الخطابة فى عصر صدر الإسلام بأنه بلغ من الحكمة والإحكام ما لم يبلغه أساليب الخطب والخطباء فى أى عصر سابق أو لاحق لهذا العصر المجيد. ومن ذلك:-

أولاً:- الترتيب والوحدةالعضوية:- كانت الخطبة فى الجاهلية متناثرة يبدأالخطيب دون إشعار المخاطب . وينتهى دون إشعاره بالانتهاء.وما بين ذلك يكون موضوعات مطروقة بسرعة.لا توفى أى موضوع حقه. أما فى هذا العصر الإسلامى المجيد ،صارت الخطبة مجزأة ومقسمة تقسيماً محكماً. مراعى فيه الوحدة العضوية للخطبة.فكل جزء منها يرتبط بما قبله. ويمهد لما بعده. فتبتدئ الخطبة بمقدمة تحتوى على الحمد والثناء على الله بما هو أهله[٤٥٨]. والصلاة والسلام على النبى صلى الله عليه وسلم. مع الشهادة لله تعالى بالوحدانية.ولنبيه بالرسالة. ثم يدخل فى الموضوع الذى أعد الخطبة له. مرتباً أفكاره. ذاكراً الأدلة النقلية والعقلية. تأكيداً لدعواه. وبرهاناً لما يراه. حتى يقتنع المستمع. ويستمال. ثم يختم الخطيب خطبته

[٤٥٨]- بلغ من حرص خطباء المسلمين على افتتاحية الخطبة بالحمد والثناء على الله تعالى. أن سموا الخطبة التى لم تبتدئ بالتحميد. وتستفتح بالتمجيد:- البتراء- البيان والتبيين جـ٢ صـ٦

بما يشعر المستمع بانتهاء الموضوع. بذكر بعض آى من القرآن الكريم. أو بعض الأدعية. والاستغفار. وهذا الترتيب والتنسيق ظاهر فى خطب النبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين. كما هو ظاهر فى النماذج سالفة الذكر.

ثانياً:- تطعيم الخطب بآى القرآن الكريم. وأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم :- حرص الخطباء فى عصر صدر الإسلام على أن يقتبسوا فى خطبهم من القرآن الكريم وسنة النبى صلى الله عليه وسلم. لأن فيهما من البلاغة والفصاحة والروعة ما يكسب الكلام طلاوة وحلاوة. تمتع الآذان. وتخشع القلوب. وتهز هز النفوس. وترقق الأحاسيس. وترهق المشاعر.

وقد تعلو الآية الكريمة بالخطبة فترفعها إلى الذروة من البيان. والقمة من التأثير. وبلوغ المقصد من أقرب طريق. ولذا قال الجاحظ عن هذا كله:-

(وكانوا يستحسنون أن يكون فى الخطب يوم الحفل. وفى الكلام الجمع البهاء والوقار. والرقة وسلس الموقع. قال عمران بن حطان:- إن أول خطبة خطبتها عند زياد- أو ابن زياد- فأعجب الناس بها. وشهدها عمى وأبى. ثم إنى مررت

ببعض المجالس. فسمعت رجلاً يقول: لبعضهم :- هذا الفتى أخطب العرب. لو كان فى خطبته شئ من القرآن.[459] وكانوا يسمون الخطبة التى لم توشح بالقرآن. وتزين بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم- الشوهاء-[460] وقد يعمد الخطيب إلى تطعيم خطبته بالشعر المناسب للمقام والموضوع. سواء أكان هذا الشعر للخطيب أو لغيره. كما فعل الصديق رضى الله عنه فى خطبته فى الأنصار. لما وصل إليه مال من البحرين. وساوى فيه بين الناس. غضبت الأنصار. وقالوا له: فضّلنا. فقال أبو بكر: صدقتم. إن أردتم أن أفضّلكم صار ما عملتموه للدنيا. وإن صبرتم كان ذلك لله عزوجل. فقالوا: والله ما عملنا إلا لله تعالى. وانصرفوا فرقى أبو بكر المنبر. فحمد الله. وأثنى عليه. وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم. ثم قال: يا معشر الأنصار: إن شئتم أن تقولوا إنا أويناكم فى ظلالنا. وشاطرناكم فى أموالنا. ونصرناكم بأنفسنا. قلتم.وإن لكم من الفضل مالا يحصيه العدد. وإن طال به الأمد. فنحن وأنتم. كما قال طفيل الغنوى:

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت

---

[459] البيان والتبيين جـ١ صـ ١١٨

[460] السابق جـ٢ صـ٦

بنا نعْلُنا فى الواطئين فزلّت.

أبوا أن يَملّونا ولو أن أمّنــــــا

تلاقى الذى يَلْقَوْنَ منا لملّت.

هم أسكنونا فى ظــــــلال بيوتهم

ظلال بيوت أدْفَأت وأظلت.[461]

ثالثًا:- البساطة وعدم التكلف؛ عمد خطباء هذا العصر إلى يسر الأسلوب وبساطته. بالبعد عن الإغراق فى القول. والتشادق فى الكلام. لأن هذه الأمور تنبئ عن تكبر الخطيب واستعلائه. وهو ما يتسبب فى سقوطه من نظر جمهوره. ولذا ورد الترغيب فى البساطة والتحذير من التكلف. والقصد فى ذلك أن يتجنب الخطيب السوقى والوحشى. ولا يجعل همه فى تهذيب الألفاظ. وشغله فى التخلص إلى غريب المعانى.

ففى الاقتصاد بلاغ. وفى التوسط مجانبة للوعورة. وخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه. وقد قال الشاعر:-

عليك بأوساط الأمور فإنها

---

[461] جمهرة خطب العرب جـ1 صـ186

نجاة. ولا تركب ذلولاً ولا صعبا.

وقال الآخر:-

لا تذهبن فى الأمور فرطاً

لا تسألن إن سألت شططاً

وكن فى الناس جميعاً وسطا.

وليكن كلامك ما بين المقصر والغالى. فإنك تسلم من المحنة عند العلماء. ومن الفتنة عند الشيطان [٤٦٢]

ولما رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الأحنف بن قيس يتفاصح ويتكلم بأسلوب خَلّاب. وشعر منه بالتكلف. حبسه عاماً كاملاً ليستكثر منه. وليبالغ فى تصفح حاله. والتنفير من شأنه. لأنه خشى أن يكون ممن قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخوف ما أخاف عليكم كل منافق عليم اللسان.

ولما رأى رفقه. وقلة تكلفه. مال إليه. واستحسن منطقه. كما حدث من النبى صلى الله عليه وسلم حين قال بعد سماعه

[٤٦٢] صحيح الترمذى حـ٦ صـ١٧٥

أحد الخطباء :- إن من البيان لسحراً[٤٦٣]- وقال عمر بن عبد العزيز لرجل أحسن فى طلب حاجة. وَتَأَتَّى لها بكلام وجيز. ومنطق حسن: هذا والله السِّحْرُ الحلال[٤٦٤]- وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:لا خلابة-[٤٦٥]

ومن مظاهر البساطة وعدم التكلف:البعد عن السجع امتثالاً لنهى النبى صلى الله عليه وسلم لِمَا فيه من تشبه بالكُهّان فى الجاهلية. ولما يبدو فيه من التكلف والصنعة. وإن كان الأمر لم يخلو من سجع بعض الخطب والخطباء. ولو تلقائياً دون تكلف.

رابعاً:- مراعاة الأسلوب لمقتضى الحال طولاً وقصراً:-

حرص خطباء هذا العصر على مراعاة مقتضى الحال. للموضوع. وللمستمع . وإن كان الغالب عليهم هو الإيجاز غير المخل. يقول الجاحظ:- إعلم أن جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر. والبدو والحضر. على ضربين: منها الطوال. ومنها القصار. ولكل ذلك مكان يليق به. وموضع يحسن فيه. ومن الطوال ما يكون مستوياً فى الجودة. ومتشاكلا فى استواء

---

[٤٦٣] - البيان والتبيين جـ ١ ص ٢٥٤- ٢٥٥ .

[٤٦٤] البيان والتبيين جـ١ صـ٢٥٤-٢٥٥

الصنعة. ومنها ذوات الفِقَرِ الحسان. والنتف الجياد. وليس فيها بعد ذلك شيء يستحق الحفظ. وإنما حظه التخليد فى بطون الصحف. ووجدنا عدد القصار أكثر. ورواة العلم إلى حفظها أسرع.....[466]

وقال أبو الحسن المدائنى:- تكلم عمار بن ياسر رضى الله عنه يوماً فأوجز. فقيل له: لو زدتنا. فقال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بإطالة الصلاة. وَقِصَرِ الخطب.[467] فقال صلى الله عليه وسلم:- قصر خطبة الرجل. وطول صلاته مَئِنَّةٌ من فقه-

خصائصها من حيث الألفاظ:-

إن اللفظ وليد البيئة. وبالتالى دأب أكثر خطباء العصر الجاهلى على استيحاء البيئةِ الألفاظَ التى يعبرون بها. والتى يفهمها سامعوهم. فلم يعنوا باختيار الألفاظ السهلة. ولا بوضعها فى مواضعها التى تستأثر الأسماع،وتخلب العقول. وتؤثر فى القلوب والمشاعر. ومن ثم زخرت خطب الجاهلية بالكثير من الألفاظ الغريبة.

---

[466] - البيان والتبيين جـ٢ صـ٧
[467] -السابق جـ١ صـ٣٠٣

أما فى عصر صدر الإسلام فقد تأثرت ألفاظ الخطابة بالقرآن الكريم الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فجاءت الخطب سهلة فى ألفاظها، سلسة فى تعبيراتها. مؤتلفة فى تنسيقها. وقد أحدث ذلك الائتلاف جَرْساً موسيقياً كان له أبلغ الأثر فى الأسماع. والعقول والقلوب.

= خصائصها من حيث المعانى:-

لما كانت الألفاظ وليدة البيئة. فإن ما تدل عليه هذه الألفاظ من المعانى. يكون متناسباً معها. وضوحاً وغموضاً. سهولةً وغرابةً. عمقاً وسطحيةً. فأكثر خطب الجاهلية ليس فيها عمق. لأن العقلية العربية التى عاشت على سطح الصحراء، ترسل بصرها فى آفاقها. فلا تعيش فيما وراء هذه الآفاق. كما أن هذه العقلية لا تحب البعد. ولا تميل إلى التعمق. وليس معنى ذلك: أن كل خطبهم سطحية لاعمق فيها. بل كان ذلك هو الغالب. لأنه اشتهر من بينهم. كثير من الحكماء ذوى العقول المتعمقة. التى أرسلت الحِكَم والأمثال والوصايا. ولما جاء الإسلام الحنيف. ونزل القرآن الكريم. وقفوا عند معانيه وأعملوا عقولهم فى تفهمها. واستنباط ما فيها من أحكام ومبادئ.

ومن هنا. بدأت العقلية العربية عامة تعرف الغوص. وتكشف الأعماق. وكما عنى الخطباء المسلمون بالربط بين التراكيب. عنوا بالربط بين المعانى. وعنوا بتنوع الصور البيانية. وكان إمامهم فى هذا هو القرآن الكريم. وكل ما امتاز به المسلمون من الصراحة والوضوح. قد أنطبع على خطبهم. فظهرت بعيدة عن الإغراق. والإغراب والغلو. وكانت معانيهم. مرآة صادقة لدينهم وخلقهم وسلوكهم.

عوامل ازدهار الخطابة فى عصر صدر الإسلام:-

تتمثل عوامل ازدهار الخطابة فى هذا العصر. فى عدة أمور تتفق مع ما ساد الحياة العامة فيه. ومع ما طرأ عليهم من تغيرات فى شتى مجالات حياتهم. وفى مقدمتها:-

أولاً:- الدعوة إلى الدين الجديد:- لما نزلت الآيات الكريمات التى تأمر النبى صلى الله عليه وسلم بتبليغ الدعوة.[٤٦٨] قام صلى الله عليه وسلم فى قوم. القولُ صناعتهم. والبلاغة جل عنايتهم. فناداهم بأبلغ القول. وخاطبهم بأروع الكلام. وخطب فى مجامعهم مؤيداً رسالته. ناشراً دعايته. حتى ضاقت صدورهم عن سماع قوله. بعد أن عجزوا عن مجادلته

[٤٦٨] كقوله تعالى- يأيها المدثر قم فأنذر- وأنذر عشيرتك الأقربين- فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين -

ومقارعة الحجة بالحجة. فامتشقوا الحسام. وتكلموا بالسنان بدل اللسان.

فالخطابة كانت الأداة الأولى لدعوة النبى صلى الله عليه وسلم. وكانت السلاح الذى يرفعه خصومه فى الرد عليه. فكانت تلك الدعوة سبباً فى إنتشار الخطابة. وزفع درجة البيان[٤٦٩] .

ثانياً:- بيان الأحكام الشرعيه:- لما دخل الناس فى دين الله. واستجابوا لداعى الله . كان لابد من بيان وتفصيل أحكام هذا الدين بالحكمة. والموعظة الحسنة. والمجادلة بالتى هى أحسن. وكثيراً ما يكون هذا كله عن طريق الخطابة

ثالثا:- الحرية الشخصية:- تزدهر الخطابة فى جو الحرية الفكرية والقولية. فإذا تحرر الفكر. ينطلق اللسان معبراً عما اهتدى إليه العقل. وقد كفل الإسلام الحنيف للمسلم حريته الشخصية. ونماها فيه. وسلك بها الطريق القويمة التى تجعل تلك الحرية منضبطة مثمرة بناءة. ويتجلى هذا المعنى فى أول خطبة خطبها الصديق بعد توليه الخلافة حيث قال:- أيها الناس إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم. فإن رأيتمونى على حق

---

٤٦٩ الخطابة: أبو زهره صـ٢٥٣

فأعينونى. وإن رأيتمونى على باطل فقومونى. أطيعونى ما أطعت الله فيكم. فإذا عصيته فلاطاعة لى عليكم[٤٧٠].

وروى الحسن البصرى رحمه الله قال: كان بين عمر بن الخطاب رضوان الله عليه. وبين رجل كلام فى شئ. فقال له الرجل: اتق الله يا أمير المؤمنين: فقال له رجل من القوم: أتقول لأمير المؤمنين اتق الله؟! فقال له عمر رضوان الله عليه: دعه فليقلها لى. نِعْم ما قال. ثم قال عمر: لاخير فيكم إذا لم تقولوها. ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم.[٤٧١] وعن ميسروق قال: ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم قال: أيها الناس: ما لكثاركم فى صداق النساء؟! وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه. والصداقات فيما بينهم أربعمائة درهم.. فما دون ذلك. ولو كان الإكثار فى ذلك تقوى عند الله أوكرامة. لم تسبقوهم إليها. فلأعرفن ما زاد رجل فى صداق امرأة على أربعمائة درهم ثم نزل فاعترضته امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين نهيت الناس أن يزيدوا فى مهر النساء على أربعمائة درهم ؟! قال: نعم. قالت: أما سمعت ما أنزله الله فى القرآن؟. قال: وأى ذلك؟. فقالت: أما سمعت الله يقول:- وآتيتم إحداهن قنطاراً فقال عمر: اللهم

---

[٤٧٠] راجع صفحة ١٩٥ من هذا البحث

[٤٧١] مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: ابن الجوزى صـ ١٥٥

غفراً. كل الناس أفقه من عمر. ثم رجع فركب المنبر فقال: أيها الناس: إنى كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء فى صداقاتهن على أربعمائة درهم. فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب. فليفعل. وفى رواية: قال: إمرأة أصابت ورجل أخطأ.[٤٧٢] من هذا كله يتضح لنا أن الإسلام الحنيف بمبادئه السمحة. قد كفل حرية النقد البناء من أجل الصالح العام للأفراد والمجتمعات. لافرق فى ذلك بين صغيراً وكبير. حاكم أو محكوم. رجل أوامرأة. شريف أو وضيع. وبهذا نرى كيف كان المسلم يتمتع بحرية شخصية كاملة. يعبد من خلالها عن كل ما يراه صالحاً لبناء المجتمع الفاضل. وفى مثل هذا الجو تنمو الخطابة وتزدهر. يقول أحد الأدباء:- إن الخطابة تزدهر وتقوى فى كل أمة تتمتع بالحرية الشخصية.

وكل أمة غُلِبَتْ على أمرها. وفشت فيها المذلة. ضعفت فيها. وتحولت من الحماسة إلى الضراعة. ولذلك امتنعت الخطابة فى العبرانيين... وانصرفت قرائحهم إلى نظم المراثى والحكمة. وتنميق الشكوى. وتنسيق التظلم.

لهذا نقول:- إن الحرية التى سادت المسلمين فى صدر الإسلام. كانت داعياً للقول البليغ. يجابهون به الخلفاء

---

[٤٧٢] تفسير ابن كثير جـ١ صـ٤٦٧

الراشدين. ولولا ما فى صدرهم منها ما ظهر ذلك القول. وما تقدموا معترضيين على الخلفاء الراشدين بخطب ممتازة.[٤٧٣] وتدعيماً للحرية الشخصية التى كفلها الإسلام للمسلم ليعبر من خلالها عما يصلح المجتمع. ومن خلال هذا التعبير تزدهر الخطابة.

حرص النبى صلى الله عليه وسلم على مشاورة أصحابه فى كل أمرهم. لذا كان

رابعاً:- الشورى. من أهم العوامل التى أدت إلى ازدهار الخطابة فى عصر صدر الإسلام.

لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا قدم على أمرما. استشار أصحابه الكرام. عملاً بقول الله تعالى. وشاورهم فى الأمر[٤٧٤] - وتلك الشورى تكون بخطبة قيمة. يعرض فيها الأمر. ويدلى كل منهم برأيه فى هذا الأمر. ثم يؤخذ بالرأى المتفق عليه. ومن أهم الأمور التى استشار فيها النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه: منزل المسلمين فى غزوة بدر. وكذلك فى مسألة أسرى بدر. والخروج لغزوة أحد. وغزوة الخندق. وغير ذلك من الأمور التى تهم الإسلام والمسلمين. وقد سار الخلفاء

---

[٤٧٣] - الخطابة: أبو زهره صـ ٢٥٦

[٤٧٤] - سورة آل عمران من الآية: ١٥٩

الراشدون على منهج النبى صلى الله عليه وسلم فى الشورى. عاملين بقوله سبحانه- وأمرهم شورى بينهم- .[475]

وهذه الشورى مجال خصب لازدهار الخطابة. وظهور الخطباء. كما حدث فى خطابة سقيفة بنى ساعدة.[476] وخطب الصحابة فى عهد الفاروق لما أراد الخروج على رأس جيش المسلمين إلى بلاد فارس[477]. وخطب يوم الشورى بعد مقتل الفاروق لتولية مَنْ يرونه ممن رشحهم الفاروق لخلافته.[478] وغير ذلك من مجالات الشورى فى مجتمع المسلمين.

خامساً:- الجهاد فى سبيل الله لنشر الدين:- لما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينه. ومعه أصحابه الكرام تاركين أموالهم وديارهم. شرع الجهاد فى سبيل الله. لاسترداد الحقوق. وقمع المعتدين. وفتح الطريق أمام من يريد الهداية إلى طريق الله المستقيم. يقول الله تعالى-

أُذن للذين يقاتلون بأنّهم ظُلِمُوا. وإن الله على نصرهم لقدير الذين أُخْرِجُوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا

٤٧٥- سورة الشورى من الأية: ٣٨

٤٧٦ -جمهرة خطب العرب جـ١ صـ١٧٣ وما بعدها .

٤٧٧ -السابق جـ١ـ ٢٢٢ وما بعدها

٤٧٨ -السابق جـ١ـ ٢٦٦ وما بعدها

الله...... الأيه-[٤٧٩] وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة[٤٨٠]...... فقاتل النبى صلى الله عليه وسلم. وأصحابه الكرام. حتى صار الدين كله لله تعالى. ومن بعد النبى صلى الله عليه وسلم أبلى المسلمون بلاءً حسنا فى قتال المرتدين. وفى فتوحاتهم الإسلامية شرقاً وغرباً. حتى أشرقت الأرض بنور ربها- وكانت الخطابة عدة وعتاد القواد المسلمين يمدون بها الجنود شحذاً لهممهم. وقوة لشكيمتهم. وتقدماً واستبسالاً.

- فزادت الخطابة بعد الإسلام قوة ووقعاً فى النفوس بنهضة المسلمين فى الحروب. وانتصار فى أكثر مواقعها. فازدادوا أنفة. وسمت نفوسهم فسما بها ذوقهم فى البلاغة.... فبلغت الخطابة عندهم مبلغاً قلما سبقهم فيه أحد من الأمم التى تقدمتهم. بلاغة وإيقاعاً وتأثيراً. حتى اليونان والرومان..... ولا غرابة فى ذلك. لأن العرب أهل خيال. وذووا نفوس حساسة. وللبلاغة تأثير شديد فى عواطفهم تقعدهم وتقيمهم. وقد كان ذلك من جملة ما ساعد على نشر الإسلام بينهم. وكثيراً ما توقف فتح البلد أو الحصن على خطاب يتلوه القائد على رجاله. فتثور فيهم النخوة. وتسرى فى عروقهم الحماسة فيستميتون فى الدفاع أو الهجوم...... وكثيرون من القواد إنما

٤٧٩ سورة الحج ايه ٣٩ – ٤٠
٤٨٠ سورة التوبة اية: ٣٦

ساعدهم على النصر قوة عارضتهم. وتأثير خطبهم فى نفوس رجالهم[٤٨١]. إذ تمدهم بالقوة الروحية والمعنوية التى لا سبيل إلى النصر إلا بالله ثم بها. وقد أكد هذه الحقيقة كثيرون من قواد الحروب فى العصر الحديث.

- يقول نابليون في بيان مقدار حاجة الجيوش إلى القوة المعنوية:- نسبة القوة الجسدية إلى القوة المعنوية فى الانتصار كنسبة ١-٣ وقال أحد القوات الألمان: إنه مع التقدم الفنى فى العصر الحديث. نرى العنصر المعنوى برهن على أنه فى الحاضر. كما كان فى الغابر العامل الحاسم فى الحرب.[٤٨٢] فالجيش من غير روح تدفعه. كالسيف من غير يد تحمله. لا يريق دماء. ولا يدفع عادية.

ولا يغذى الروح إلا الخطابة. وكلما كان القائد أملك لعنان القول مع أخذ الأهبة. كان أكثر انتصاراً.

فالجهاد فى سبيل الله. فتح للخطابة باباً واسعاً.

يضاف إلى هذه العوامل من قبل ومن بعد: القرآن الكريم. وسنة النبى صلى الله عليه وسلم. كان لهما أبلغ الأثر

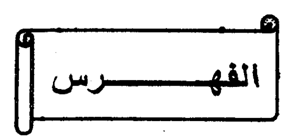
٤٨١- تاريخ آداب اللغة العربية: جرجى زيدان جـ٢ صـ١٩٢
٤٨٢- الخطابة: أبو زهره صـ ٢٥٩

فى نجاح وازدهار الخطابة والخطباء[483]. بالإضافه إلى الفتن التى طرأت فى أواخر عهد الخلفاء الراشدين. التى نَزَّهَ الله تعالى منها أيدينا. فلا نلطخ بها ألسنتنا وأقلامنا:

وصفحات كتبنا. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أ.د سعيد الصاوى

[483] السابق صـ٢٥٨ - ٢٦٤ وفن الخطابة للشيخ على محفوظ صـ٢٥


الفهــــــرس


تم بحمد الله تعالى